

ما فوق مبدأ اللذة

المؤلفات الأساسية في التحليل النفسي
سيجموند فرويد

ما فوق مبدأ اللذة

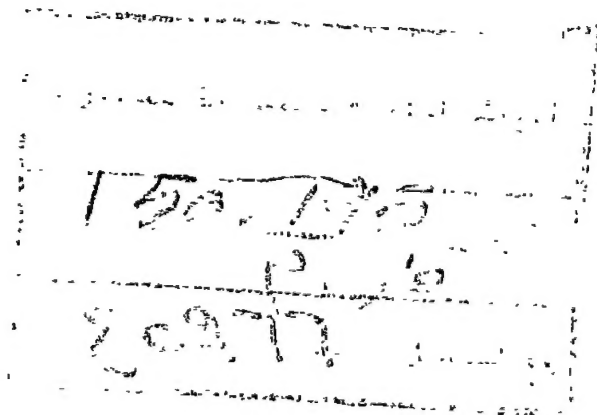


General Organization Of the Alexan-
dria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

ترجمة

الدكتور إسحاق رمزي

الطبعة الخامسة



دار المغارف

مقدمة الترجمة

يستلزم العمل على تفهم مصادر السلوك الإنساني وتفسير مختلف الأشكال التي يبدو فيها . أن يضع الباحث من الفروض والنظريات ما تهديه إليه المشاهدة العلمية لمظاهر ذلك السلوك في أحواله المألوفة وغير المألوفة ، وما يؤيده البحث فيما يدور بالنفس من مختلف المشاعر والأحاسيس ، وما يتناوبها من ألوان الأخيلة والأفكار فيدفع بها إلى تلك الألوان المختلفة من التفكير والنشاط في أحوال الصحة والمرض على السواء .

ولقد حاول الناس على مر العصور أن يقفوا على أسرار النفس وأن يتفهموا ما تنطوي عليه من البواعث التي تظهر آثارها في رضا المرء عن حياته أو شقاوته بها ، وفي إقباله على العمل والحياة على اختلاف وجوهها وما تعج به من ضروب الكفاح والإنتاج . كما جاهدوا في سبيل الكشف عما يؤدي إلى ما ينتاب الإنسان من ألوان العلل التي يظهر بعضها على البدن . ويظهر بعضها الآخر على العقل فيلتاث ويضطرب .

وتاريخ الفكر الإنساني مفعم بالنظريات التي ذهب إليها بنو البشر منذ أقدم ما عرفت الحضارة ؛ منها ما يرد ألوان التفكير والسلوك في حالات الصحو والنوم ، والسواء والشذوذ ، إلى الأرواح طيبها وشريرها تؤثر عليه فتدفع به إلى ما يبدو منه للناس من خير أو شر . ولا يزال هذا الرأي أو بقاياه شائعاً حتى اليوم ، فطيراً ساذجاً بين العامة في كثير من بلاد الشرق بل بلاد الغرب . كما نشاهد مثل هذا الرأي مقنعاً مموهاً تحت أسماء مختلفة تصطنع المصطلحات العلمية الخافية التي تعود أصلاً إلى الإيمان بتلك القوى الغامضة التي تسيطر على مقادير بني البشر ، من هذا ما يقال من أن

جرائم الوراثة أو عصابات الغدد أو تلافيف المخ هي الأصل الطاغى على سلوك الإنسان في صحته أو مرضه النفسى .

غير أن كثيراً من المفكرين - حتى في أكثر العصور جهالة - فطنوا إلى وهى الإيمان بتلك القوى الغيبية فالتمسوا للسلوك الإنسانى تفسيراً أكثر قرباً من الواقع وأكثر قابلية للتحقيق والبحث . وتواتر خلال التاريخ فيض غامر من النظريات والمذاهب التى عرضت للبحث فى النفس الإنسانية وفى صلتها بالبدن . ونحنا بعضها إلى إرجاع ما يدور بالنفس وما يعرض لها إلى أسباب بدنية ، كما نحنا كثير منها إلى دراسة السلوك الإنسانى دراسة نفسية خالصة تحفل بها كتب الفلاسفة والأدباء فى مختلف الأزمنة والعصور .

وما من شك أن أحداً من مفكرى العالم فى تاريخه الطويل لم يوفق فى الكشف عن مجاهل النفس الإنسانية فى الصحة والمرض إلى مثل ما وفق إليه سيجمند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) واضع التحليل النفسى . فهو أهم العلماء الذين توفروا على دراسة النفس الإنسانية دراسة علمية ، قضى فيها سنوات يعالج فيها المرضى ويجاهد فى سبيل الكشف عن أعماق النفس وما تنطوى عليه من أخيلة وأفكار ، تؤدى آخر الأمر إلى كثير مما يصدر عن الإنسان من سلوك رفيع أو ضيع ، وما ينصرف إليه فى حياته الاجتماعية أو العلمية أو الفنية ، وما يستمتع به من صحة أو يصيب نفسه من مرض . ولقد وفق فرويد بطريقة التحليل النفسى التى اهتدى إليها ، إلى كشف رائعة كتب لها أن تغير وجه التفكير الإنسانى من عدة وجوه ، واعترف له حتى غير المتشيعين لمذهبه بأن « أحداً من المفكرين منذ عهد أرسطو لم يوفق فى فهم الطبيعة الإنسانية إلى مثل ما وفق إليه فرويد » .

ولقد قضى سيجمند فرويد ما يقرب من الخمسين عاماً باحثاً دارساً مستقصياً مظاهر النفس الإنسانية مجاهداً فى نشر آرائه والدفاع عنها وداعياً إلى

العمل على التحقيق منها . حتى استطاع قبل أن ينتهى أجله أن يظفر باعتراف العالم كله بفضلله . وداعياً إلى إقامة « التحليل النفسى » صرحاً من صروح العلم الحديث يفيد منه الناس فائدة تظهر نتائجها فى كثير من نواحي الحياة .

وأصبح التحليل النفسى . أو ما يشتق منه : خير طريقة لعلاج الأمراض النفسية وبعض الأمراض العقلية ، بل لعلاج طائفة من الأمراض البدنية التى تصدر أصلاً عن النفس لا عن البدن . هذا إلى أن كشف المدرسة التحليلية عن دوافع السلوك وحيل التفكير قد أصبحت أهم فصول علم النفس وأخطر جوانب السيكولوجية العلمية المعاصرة . وإلى هذا وذاك تأثر كثير من نواحي الثقافة الإنسانية فى المسائل الاجتماعية والإنتاج الأدبى والفنى بآراء فرويد تأثراً لا حاجة بنا إلى الإطالة فيه أو الإشادة بمقداره ومداه .

* * *

على أن فرويد لم يضع ذلك العلم بين يوم وليلة ، ولم يقف عند رأى جامد يستمسك به ولا يحيد عنه . بل قضى زمناً طويلاً يبحث ويستقصى ويستكمل ما كان يبدو له من نقص فى نظريته ، أو يصحح ما كان يلوح من أوجه الخطأ فيها . حتى أقام أخيراً هو وأتباعه ذلك الصرح الهائل من الحقائق والنظريات التى تمتلئ بها كتب التحليل النفسى ودورياته .

ولقد كان كل رأى جديد يعلنه فرويد على الناس لا يقابل منهم إلا بالاستنكار والمعارضة والسخرية والتشكك ، غير أن الأمر كان ينتهى المرة بعد المرة إلى هدوء العاصفة ، وإلى تحول المعارضة إلى نقيضها ، وإلى قبول حجته الرصينة الهادئة وزيادة تقبل آرائه والاعتراف بنظرته الثاقبة وعبقريته الفذة . ولسنا نغنى بهذا أن كافة ما كان يقول به كان بعيداً عن الخطأ فليس هذا هو الواقع . فإن فرويد نفسه قد بدّل وغير كثير من آرائه الأولى ، بل تناول بعضها بالتغيير أكثر من مرة . وعلى الرغم من أنه كان له من

الشجاعة ما دفع به إلى الضرب في آفاق المجهول وليس له من سلاح سوى المعرفة التي اهتدى إليها من بحوثه في النفس الإنسانية . فإنه كان ينشر آراءه في شيء غير قليل من الإشفاق والتردد والشك كان على النقيض من ذلك القطع والحسم الذي كان يكتب به معارضوه .

وقد كان أهم ما استغرق اهتمام فرويد من الناحية النظرية هو التعرف على الأسس الأولية للسلوك الإنساني . تلك الأسس الفطرية التي تسبق كل تعلم ، يولد بها الإنسان وتنطوي عليها نفسه فتدفعه إلى كثير مما يصدر عنه من ألوان المشاعر وأشكال التفكير ومظاهر العمل والسلوك . ولم يكن فرويد وحيداً بين علماء النفس في الاهتمام بذلك الجانب من البحث ، فقد انصرف أكثر العلماء المعاصرين إلى دراسة تلك الدوافع الفطرية عن طريق الملاحظة والنظر والتجريب ، ودار نقاش طويل حاد بينهم عن تعريفها وتحديد مداها وتنفيذ أشكائها ، وكثرت المناقشات حول طبيعة هذه الدوافع وأصولها ، واختلفت الأسماء التي أطلقت عليها فسميت بالغرائز ، والميول ، والحاجات ، والخوافز ، والرغبات . لكن الواقع أن أكثر الخلاف كان خلافاً لفظياً ، كما كان أهمه يدور حول عدد هذه الدوافع ومدى تأثيرها على سلوك الكائن الحي .

وأى فهم لنظريات فرويد في هذه الناحية لا بد أن يبدأ بالوقوف على معنى كلمة الغريزة عنده ، ذلك المعنى الذي حدده فرويد تحديداً واضحاً صريحاً . فهو يقرر أنه ينبغي الاحتفاظ بهذا المصطلح للترعات الأولية وحدها ، أى تلك الترعات التي لا يمكن إرجاعها إلى ما هو أبسط منها . هذا إلى أن الغريزة عند فرويد تعبر عن قوة نفسية راسخة تصدر من صميم الكائن العضوى وتنبع أصلاً من حاجات البدن التي تتأق عمما يجرى في أعضاء الجسم وأجزائه ، بل فيه كله ، من عمليات بيولوجية لا يستغنى عنها الكائن الحي . هذه الحاجات التي تصدر من التكوين البدني النفسي للإنسان تؤدي به ، إذا

ما ثارت ، إلى حال من التوتر يدفعه إلى تدبير المواقف التي تهيء له ما يلتمسه من الإشباع وتؤدي إلى التخلص أو التخفف من ذلك التوتر .

ومن ثم كانت فكرة الغريزة ، واستخدام أصحاب التحليل النفسي لها ، فكرة أساسية لتفسير السلوك ، رغم ما يوجد من بعض الخلاف اليسير على المقصود بها وعلى مدى سيطرتها وتغلغل أصولها . لكن مدار الرأي الغالب هو ما يقول به فرويد نفسه من أن الغريزة هي ذلك الضرب من الطاقة التي تصدر عن التكوين الأساسي للإنسان ، وأنها تنبع أصلاً من مقوماته البيولوجية . فهي فكرة ، كما يقول فرويد ، تقع متوسطة بين مناطق البدن ومناطق النفس . ومع هذا كله لم يكن فرويد يعتبر أن بحثه في الغرائز هو المهمة الأساسية التي أخذ على عاتقه القيام بها في حياته العلمية التي كانت تهدف إلى تفسير بعض الظواهر النفسية المعينة التي كانت تحيره وتجذب انتباهه ، تلك كانت على الأخص الاضطرابات النفسية والأحلام . وكانت دراسته للغرائز أول الأمر دراسة جانبية اعتبرت أبحاثه ثم أخذت شيئاً فشيئاً تستغرق انتباهه واهتمامه . ورغم أن أبحاثه الأولى شملت كثيراً من الدراسات في طبيعة الغرائز وأشكال نشاطها ، وخاصة ما يتصل منها بالغريزة الجنسية ، إلا أنه لم يشرع في وضع نظرية محدودة المعالم عن تلك المسائل إلا بعد ما يقرب من ثلاثين عاماً من البحث المتصل . ومن ثم لم تكن آراؤه سريعة فجة ، ولا كانت آراء تأملية سابقة للملاحظة والاختبار : بل كانت قائمة على خبرة واسعة متصلة عميقة مباشرة ، هيأتها له طبيعة عمله في علاج الأمراض النفسية كما هيأتها له دراساته الواسعة لمختلف نواحي المعرفة الإنسانية في علوم البيولوجيا والطب والاجتماع والأجناس .

إلى جانب هذا كان مما يجتذب انتباه فرويد باستمرار وجود عامل الصراع في حياة الإنسان . حسبنا أن نرى إلى العالم الذي نعيش فيه لحظات ،

حتى نرى كثيراً من مظاهر العراك والكفاح في كافة النواحي . لكن فرويد لم يقتصر على تلك المشاهد الخارجية بل تتبع أصول هذا النزاع في أعماق النفس الإنسانية واهتدى إلى وجود الصراع في صميم التكوين العقلي للإنسان . وقرر أن أهم خصائص العقل هي الصراع الدائم الذي ينطوى عليه ، وخاصة في طبقاته العميقة التي أطلق عليها اسم اللاشعور . وارتأى أن الحياة في صميمها ليست نزاعاً بين الفرد والفرد فحسب . أو بين الأمة والأمة فحسب ، بل بين بعض الإنسان وبعضه الآخر ، بين جانب من نفسه والجانب الآخر . ويمكن أن يعتبر حديثه عن طبيعة هذا النزاع كأنه البحث الذي قامت على أساسه نظريته في التحليل النفسي ؛ كما يمكن أن تؤكد أنه بالرغم من تحول آرائه وتطورها فقد بقيت نظريته من مطالعها حتى نهايتها رأياً اثنيينياً يقوم على التسليم بوجود طرفين أو جانبين يتنازعان نفس الإنسان .

ولقد اكتفى فرويد في الخمس عشرة أو العشرين السنة الأولى من أبحاثه بتصنيف عريض بسيط للميول الفطرية عند الإنسان . فاصطنع المقابلة الماثورة التي قال بها الشاعر الألماني « شيلر » ألا وهي المقابلة بين الجوع والحب ، تلك المقابلة التي تذكرنا بما مر مثلها في تفكير حجة الإسلام الغزالي عن شهوة البطن وشهوة الفرج ، فقسم فرويد الدوافع النفسية للإنسان إلى مجموعتين : إحداهما هي المجموعة التي تهدف إلى الاحتفاظ ببقاء الفرد ، والثانية هي المجموعة التي تهدف إلى بقاء النوع . وهذا تقسيم من الواضح أنه يقوم على أسس بيولوجية . وأطلق على الأولى اسم غرائز « الأنا » وعلى الثانية اسم الغرائز الجنسية . وقال إن هذا ليس سوى فرض علمي نافع يمكن أن يبدأ به البحث ، سعياً وراء تنظيم المشاهدات والوقائع التي يقوم على جمعها . ورأى أن الآلام النفسية تنأت من الصراع الذي يقوم بين هاتين

الناحيتين من الدوافع ، بين غرائز « الأنا » الطليقة وبين الغرائز الجنسية المكبوتة ، وقد أيدت كافة الأبحاث التي أجريت بعد ذلك صحة ما ذهب إليه فرويد .

واستغرق البحث في مجموعة الغرائز الجنسية اهتمام فرويد سنوات ، وخاصة ما كان يخفى منها في أعماق النفس نتيجة للكبت الذي تتطلبه التربية والدين والحضارة ، تلك الغرائز التي لم يكن يعرف عنها حتى ذلك العهد سوى التزير اليسير . وكانت أهم كشوفه وجود الميول الجنسية عند الطفل ، ورغم أنه استعمل لفظ « الجنسي » على منوال أرحب من الاستعمال المأموف ، ووصف بها كثيراً من الرغبات وألوان النشاط التي لم يألف الناس من قبل نسبتها إلى الجنس ، إلا أنه لم يقصد بذلك اللفظ شيئاً جديداً ولم يستعمله استعمالاً يخالف الاستعمال الشائع في كثير أو قليل .

وكان أول ما فاجأ به الناس هو تقريره أن الرغبات الجنسية ، كما يقصد الناس جميعاً بهذا اللفظ ، تثور بنفس الطفل وتوجد بها وجوداً لا شك فيه منذ مطالع الحياة وقد اعتمد في إثبات هذا الرأي على كثير من البراهين من الحالات المرضية وغير المرضية ، ومن دراسة طبائع الشعوب وعاداتها ، لسنا اليوم بمجال تفصيله فكثرة الناس تسلم به وتعترف بقبوله بعد أن أنكرته من قبل . ومجمل هذا الرأي أن الغريزة الجنسية غريزة معقدة كثيرة العناصر تمر بعدة مراحل مختلفة حتى تصل إلى النضج الذي تتميز به عند الإنسان البالغ . لكنها تبدأ من عناصر محدودة في الطفولة الأولى حين يلمس الطفل اللذة في مناطق جسمه المختلفة قبل أن يصل إلى المرحلة التي تتمتع فيها هذه العناصر جميعاً . ووجد أن أهم مناطق الجسم التي تصدر عنها الغريزة هي الفم والمخارج ثم الأعضاء التناسلية . لكن الغريزة الجنسية لا تكون أول الأمر وحدة متكاملة ، بل تتكون من عناصر متفرقة تصدر عن عدة مصادر

عضوية ، كل منها يعمل مستقلاً عن الآخر . ويسعى سعيًا أعمى وراء إشباع اللذة العضوية الساذجة ، وهي تؤدي إلى ازدياد التوتر في تلك الأعضاء توتراً يستلزم التخفف ويتطلب الإشباع ، ولا يتأتى لها أن تنسجم في وحدة ناضجة واحدة تقوم عليها وظيفة التناسل إلا عند البلوغ .

وفي ذلك العهد وضع فرويد فرضه عن « اللبيدو » فقال إنه الطاقة البيولوجية التي تظهر في الميول الجنسية ، وهذه بدورها ليست سوى كميات من تلك الطاقة يمكن انتقالها من منطقة في الجسم إلى منطقة أخرى ، وهي قابلة للتحويل والظهور والتجمع والتخلف ، قبل أن ينصرف أغلبها ويندمج في كل واحدة ويسعى نحو هدف أو أهداف في الفرد نفسه أو خارجه .

وتكون هذه الغرائز الجنسية أول الأمر مختلطة مع غرائز الأنا (أى غرائز المحافظة على بقاء الفرد) فالجوع مثلاً يختلط بلذة الفم في مصدره وهدفه وموضوعه ولا يفترق هذا عن ذاك إلا بعد ذلك بمراحل : فالطفل يمص الثدي قبل أن يمص أصبعه ، ويمص هذين قبل أن يبدأ في استخدام شفثيه للتقبيل بوقت طويل .

وكان مما نشره فرويد عن طبيعة الميول الفطرية مقال عنوانه « الغرائز وتقلباتها » وفيه أشار إلى تفرقة نافعة بين « هدف » الغريزة ، أى غاية الإشباع التي تسعى نحوها ، وبين « موضوع » الغريزة ، أى الوسيلة التي تستطيع بها أن تحصل على ذلك الإشباع ، سواء كانت تلك الوسيلة جسم صاحبها أم جسم غيره . أما « مصدر » الغريزة فقد قرر أنه يعود أصلاً إلى البدن ، لأنه ارتأى أن الدوافع الفطرية تقوم على الأسس الفسيولوجية الكيمياوية التي تجري في جسم الإنسان . ومن ثم كان رأيه عن الغريزة ليس رأياً سيكولوجياً خالصاً بل رأياً سيكولوجياً فسيولوجياً . كما ذهب إلى أن النتائج النفسية التي تؤدي إليها الغرائز المختلفة تعود إلى اختلاف مصادرها البدنية . وقد استطاع

فيما يختص بالغريزة الجنسية أن يبين بالتفصيل مناطق الجسم المختلفة التي تصدر عنها عناصرها المختلفة ، وأن يربط بين هذه العناصر وما يترتب عليها من تكوين الخلق والشخصية . وقد كان من أعجب الكشوف مثلاً الوقوف على الصلة بين طريقة الرضاعة والفظام ، أو التدريب على ضبط المخارج وبين الخصائص النفسية للفرد بعد ذلك ، فيما يتصل بإقباله على الحياة أو تشاؤمه منها وحرصه عليها أو تبذيره فيها .

* * *

ورغم أن بحوث فرويد لذلك العهد كانت تدور حول الغريزة الجنسية إلا أنه لم يغفل أن هناك ناحية أخرى في النفس تنصرف إلى المحافظة على الذات والكفاح في سبيل الحياة ، فأقام مقابل الغرائز الجنسية مجموعة أخرى من الغرائز هي غرائز الأنا . وقرر أن الأساس في الأمراض النفسية هو الصراع الذي يقوم بين الميول الجنسية وبين ما تفرضه الأنا . غير أن سيكولوجية الأنا كانت حينذاك لا تزال خافية على الأفهام ، وكانت طبيعة غرائزها شديدة التعقيد ولم يهبأ له وقتها ، لشدة اهتمامه بإتمام البحث في الميول الشهوانية ، أن يلقي عليها حينذاك ضوءاً يكشف عن طبيعتها . لهذا توفر في تلك الفترة على دراسة كيفية تصرف الفرد بإزاء الغريزة بالضبط أو الاستبدال أو الإغلاء وفق مقتضيات العالم الخارجي والأوضاع الاجتماعية ؛ واهتدى إلى الخيل النفسية التي شاعت بعد ذلك على ألسنة الخاصة ثم العامة من كبت وقلب وتنفيس ، ووصل من دراساته هذه إلى حقائق عجيبة عن تحولات الغريزة مثل تحول الحب إلى الكراهية ، أو مثل تحول الطاقة الشهوانية الحبيسة - الليبدو - إلى جزع أو قلق ، كما لمس الصلة بين الغرائز الجنسية وغرائز المحافظة على البقاء .

ثم تقدمت أبحاث فرويد خطوة ثانية عند نشره بحثاً مشهوراً بعنوان

« النرجسية » كان أصدق وصف له ، ما قاله « أرنست جونز » ، إذ قال إنه كان بحثاً مزعجاً . ويعود الفضل في وضع مصطلح النرجسية إلى العلامة الإنجليزى المشهور « هافلوك أليس » الذى توفر بعيداً عن فرويد على دراسة الميول الجنسية ، ونشر عنها ، فيما نشر ، موسوعة تقع في ستة مجلدات ضخمة صارت بعد ذلك مرجعاً لرجال الطب وعلوم النفس والاجتماع في هذه الناحية . ولقد وصف « أليس » حب الذات وصفاً مفصلاً وأطلق عليه اسم النرجسية إشارة إلى الأسطورة الإغريقية المعروفة . وهناك كثير من أمثلة النرجسية في هوس المجنون ، وفي اهتمام المصاب بالهيجاس ببدنه ، ومن أمثلتها ما يشاهد في حياة الأطفال ، والعجائز ، أو المصابين بعزل بدنية خطيرة ، إذ يبدو في كافة هذه النواحي الفرق بين حب الذات وحب الغير ، والصلة بينهما ؛ فكلما زاد حب المرء لنفسه قل حبه لغيره والعكس بالعكس . على أساس هذه الملاحظة قرر فرويد أن الليبدو يتجمع كله في الذات ، وأن حب الذات هو مبدأ كل أنواع الحب الأخرى . فإذا انصرف هذا الليبدو إلى الخارج قلنا عنه إنه حب لموضوع ، أى حب لموضوعات أخرى غير الذات . لكن هذا الحب الخارجى يمكن أن يتراجع إلى الذات مرة أخرى كما يقع في أحوال الإصابة بالمرض أو عقب الإصابة في حادثة خطيرة ، أو عند تقدم العمر وما إلى ذلك ، حيث يزيد اهتمام المرء بنفسه وتفرغه للتفكير فيها والجزع عليها .

لكن هذا رأى الحديد الذى أتى به فرويد في ذلك العهد ، وأيده بكثير من المشاهدات التى لا يمكن إنكارها كان مزعجاً لأتباعه كما أسلفنا ، لأنه حين قال إن الذات نفسها محملة بالليبدو ، فكأنه قال إن غرائز المحافظة على الذات لم تكن سوى جانب من الغريزة الجنسية . ولاح كأن من نقدوا فرويد كانوا على صواب حين زعموا أن ليس لديه سوى ميل طاغ واحد هو الميل الجنسى . لكنه كان يرد عليهم بأن نظريته تقوم على الصراع النفسى

وأن الميل الجنسي ليست سوى النصف أو ما يقارب النصف من فطرة الإنسان . على أنه بدا - بعد مقاله عن الترجسية - كأنه وقع في أيدي معارضييه ، وبدا كأنهم كانوا على حق حين نسبوا إليه أن الجنس عنده كل شيء وأهم شيء ، ولاح كأنه قد أنسى ما ذكره عن أهمية الصراع في النفس ، ذلك الصراع الذي أقام عليه تفسير الأمراض النفسية .

ثارت كل تلك المشاكل تواجه المحللين ويضيق غيرهم من العلماء عليهم الخناق في سبيل الإجابة عليها ، ولاح كأن فرويد قد وهنت منه الحجة وأنه قد أنكر الاثنينية التي قال بها من أول الأمر ولم يصل أخيراً إلا إلى الدعوة إلى فكرة واحدة هي فكرة الجنس يفسر به كل شيء ويدعو إلى أنها كل شيء . على أن النقد كان متجنباً ، فإن فرويد - رغم هذا كله - كان حازماً في استمساكه بفكرة الصراع ، وبوجود قطبين في النفس يتنازعانها ، هما الليدو وما هو غير الليدو ، هما الميل الجنسي وميول المحافظة على البقاء . غير أنه كان لزاماً عليه أن يشرح موقفه في جلاء ، وأن يبين رأيه في وضوح . واعتكف فرويد صامتاً عدة سنوات أخرى وتوفر على البحث كي يستكمل مذهبه ويدافع عن رأيه ضد من أساء فهمه .

* * *

وإذا به يخرج على الناس في عام ١٩١٤ بكتاب عويص لحل هذه المشكلة بعنوان « ما فوق مبدأ اللذة » . وفيه طلع على الناس بحل عجيب للمشكلة التي طال تفكيره فيها . وقد وصل إلى هذا الحل عن طريق التفكير المجرد المتصل على المنوال الآتي :

حاول أن يرى ما إذا كانت كافة العمليات النفسية تخضع لمبدأ اللذة والألم ، وأن يعرف ما هي الغاية والوظيفة الأساسية لهذا المبدأ . فأجاب عن السؤال الأول بالنفي ، لأن كثيراً من الدراسات على الأحلام وعلى لعب الأطفال

وسلوك المرضى أثناء العلاج بالتحليل دفعته إلى القول بوجود مبدأ آخر تنتظم وفقه العمليات النفسية أطلق عليه اسم «إجبار التكرار» ؛ وهو مبدأ أكثر تغلغلا وقدماً في النفس الإنسانية ، يفرض عليها أن تكرر الخبرات والمواقف القديمة دون نظر إلى ما تؤدي إليه من نفع ، بينما تقوم وظيفة مبدأ اللذة والألم على محاولة خفض التوتر النفسى إلى أقل درجة ممكنة .

ويشترك المبدأان في أنهما يلتزمان بالمحافظة ، إذ أن كلا منهما يقاوم أى تغيير للقديم ويعمل على مناهضة العوامل الجديدة التى تقابل الكائن الحى . فبدأ اللذة والألم يجاهد لخفض التوتر الذى تبعثه التغيرات الخارجية بينما إجبار التكرار يحاول أن يعود بالكائن الحى إلى أحواله السابقة . وهنا خطرت في ذهن فرويد فكرة جديدة هى أن أهم خاصية للغرائز هى الميل إلى المحافظة والعودة بالكائن الحى إلى أحواله السابقة ، وضرب مثلاً لذلك بهجرة بعض الطيور والأسماك هجرة موسمية إلى أمكنة كانت تنفع الهجرة إليها في عصور غابرة بينما ليس هناك ما يدعو إليها اليوم .

وكان فرويد مفكراً يتميز بالدقة والجرأة . وإذا به في هذه النقطة لا يتردد في تتبع الفرض الذى وضعه إلى نهايته ، وإذا به يقول إنه إذا كانت الغرائز تهدف إلى العودة بالكائن الحى إلى أحواله السابقة فلا بد أن في الإنسان نزعة تهدف إلى العودة به إلى الحالة السابقة لكل الأحوال ، ألا وهى حالة المادة الجامدة : أى أن الموت هو غاية كل كائن حى . والحياة تؤدي آخر الأمر إلى الموت وتسعى إليه ، والكائن الحى يسعى حثيثاً نحو السكون ، ذلك السكون الكامل الذى ينتهى إليه إذا ما وصل إلى حالة المادة الجامدة . وربط هذا بعمليات الهدم والبناء في الجسم وذهب إلى أن عملية الهدم هى التى تقرر مصير الكائن آخر الأمر .

ثم رأى فرويد أن هذه الأقوال لا يمكن أن تصدق على كل الغرائز

وعلى الغريزة التناسلية على الأخص ؛ لأن هذه تعمل على خلق الحياة الجديدة ، وهى تصل إلى هذا الهدف بالجمع بين خليتين ينتج من اتحادهما كائن جديد ؛ لأن وظيفتها الربط والجمع والبناء . وهنا وحد فرويد بين اللبيدو وبين إيروس - رب الحب عند الشعراء والفلاسفة - الذى يعمل على البناء وعلى ابتعاث الحياة بالتأليف بين عناصرها .

وأدى هذا إلى أن يقرر فرويد الثنائية التى قال بها منذ أول الأمر فى النفس بوجود مجموعتين من الغرائز هما غرائز الحياة وغرائز الموت ، وإيروس وثاناطوس ، إذا أردنا استخدام المصطلحات الإغريقية . ولكى نوجز ما أسلفنا يمكن أن نتبع تطور تفكير فرويد عن ثنائية الغرائز فى الخطوات الثلاث الآتية : الأولى المقابلة بين غرائز الأنا والغرائز الجنسية ، والثانية المقابلة بين حب الذات وحب الغير ، والثالثة المقابلة بين غرائز الموت وغرائز الحياة .

لاح أن المسألة قد وصلت إلى حل عند هذا الحد . لكن المشكلة ما زالت قائمة : فكيف يمكن أن نقسم الظاهرات النفسية وفق هذه المقابلة وأن ننسب هذه العملية إلى واحدة من تلك الغرائز أو ما يقابلها ؟ ليس من شك أن غرائز الحياة والحب وما تدفع إليه واضحة جلية للعيان ؛ لكن ما هى العمليات النفسية التى يمكن نسبتها إلى غريزة الموت . حاول فرويد أن يحل المسألة هنا بقوله وقتاً ما إن غريزة الموت صامتة ساكنة لا تظهر نشاطها بل تعمل خافية فى أعماق الكائن . لكن هذه الإجابة لم تكن نافعة تلقى أى ضوء على التكوين النفسى أو على مظاهر نشاطه .

وهنا خطر لفرويد أن يجمع بين ناحيتين من تفكيره وبحوثه : بين البحث النظرى الذى أدى به إلى القول بوجود غريزة الموت ، وبين بحوثه العلاجية التى أدت به إلى التحقق من وجود جانب كبير من الميل إلى القسوة فى نفس الإنسان ، هذه القسوة التى إذا لم تجد لها منصراً فى العالم الخارجى

ارتدت إلى صاحبها تلهبه بسياط التعذيب الذى نشاهده فى كثير من الأحوال المرضية . يكفى لهذا أن نذكر مثلاً واحداً أثبتته الدراسات المرضية هو أن الانتحار يكون نتيجة لبعض ميول القتل والكراهية التى لم يستطع صاحبها — لأى سبب خاص به أو بالعالم الخارجى — أن ينفذها ضد غيره فارتدت إلى نحره يحاول أن يقتل نفسه بدلاً من رغبته الأصلية فى قتل غيره .

ولقد لاقت نظرية فرويد عن غريزة الموت كثيراً من النقد حتى بين المحللين أنفسهم ، وأنكر كثير منهم التسليم بوجود نزعة أساسية فى نفس الإنسان تنتهى به إلى القضاء على نفسه وتناقض لبّ الحياة وحب البقاء . ومهما يكن من أمر المبررات النظرية التى اعتمد عليها فرويد للقول بتلك النزعة ، فإنه لم يكن وحده أول من تحدث عنها أو فرض وجودها بل هناك من العلماء والمفكرين من تعرضوا بكثير من التفصيل لدراسة الميل إلى الثبات والسكون عند الكائن الحى سواء من الناحية الفسيولوجية أو من الناحية العقلية النفسية . ولا يسمح لنا المقام هنا سوى أن نشير إلى أقوال سبنسر وفشتر وبتسموك عن مبدأ الثبات ، أو الحقائق التى اهتدى إليها باستير وكانون عن البيئة الداخلية للخلايا الجسم وتوازن العناصر والإفرازات المختلفة فيه . وإذا كان رأى فرويد يتميز بالحدة والغرابة فى آن واحد ، فليس من شك فى أن هذا يعود إلى أنه رغم تأثره بغيره من المفكرين ، وخاصة فى النواحي البيولوجية ، كان أول من حاول أن يكشف عما يوازى تلك الحقائق البدنية فى المجال النفسى وفيما ينظوى عليه العقل من ميول ومشاعر .

ومهما يكن من إنكار بعض المحللين لما ذهب إليه فرويد من القول بوجود ميل أصيل فى النفس إلى الفناء ، ومهما يكن من عسر فى تتبع الأسانيد التى يعتمد عليها فى تأييد رأيه ، فليس من شك أن أحداً من الناس ، محلاً أو غير محلل ، لا يستطيع أن ينكر منه اهتمامه بتبيان جانب

الكراهية ، والقسوة ، والعدوان ، ومحبة الإيذاء ، والتدمير التي تنطوى عليها النفس الإنسانية . فهو يقرر أن « النزعة إلى العدوان استعداد فطري غريزي قائم بذاته في نفس الإنسان » .

ورغم هذا فقد لاقى هذا الرأي السير الواضح الذي قال به كثيراً من الاعتراض الذي وجهه النقاد إلى فرويد ، وتحول تجرييحهم له إلى هجوم حاد ، وأنكروا عليه أن كشف في نفس الإنسان من الشر ما يود الناس أن ينكروه ، وكان نقدهم إياه في هذه الناحية حاداً ، بل أكثر حدة من نقدهم إياه حين كان يبصرهم بما تنطوى عليه نفوسهم من الميول الجنسية . قال بعضهم إن المعقول هو أن الإنسان إذا غضب واعتدى فهو إنما يندفع إلى هذا الفعل لأن أمراً قد هدد أمنه ولأن سلامته لاحت مهددة بالخطر ، ومن ثم لا يكون عدوانه إلا في سبيل الدفاع عن النفس ، يبعث إليه ويمليه حب البقاء والاستمساك بالحياة . غير أن هذه الحجة في الواقع إنما هي حجة واهية ضعيفة ، رغم ما يبدو فيها من الوجهة ورجاحة الرأي . ذلك لأن هناك كثيراً من مظاهر العدوان الذي نشاهده قاسياً شديداً ، سواء صدر عن الأفراد أو الجماعات ، وهو عدوان لا يمكن أن نجد له مثيراً يبرره ، ولا يوجد له ما يفسره إلا أن الإنسان في سبيل الإبقاء على حياته والحصول على ما ينبغي فيها ، لا بد أن يعمل على تحطيم العقبات التي تواجهه ، والتغلب على ما يقف دون وصوله إلى الأهداف التي يتطلع إليها .

هذا العدوان نشاهده من الرضيع حين يعمل أسنانه في الثدي ؛ كما نشاهده بين جماعات الصغار التي لا تتورع أحياناً في إيذاؤها ، الذي توجهه إلى بعض أفرادها أو إلى بعض الحيوان ، عن التشويه والقتل ؛ كما نشاهده في الكراهية الشديدة والغيرة الحادة التي تبدو حتى بين الإخوة — تلك هي المشاهدات التي لا يمكن تفسيرها إلا بأن طبيعة الحياة نفسها تستلزم

أن يكون الإنسان معتدياً ، رغم أن هذا الميل إلى العدوان تعمل على كبحه وتوجيه قياده عوامل التربية المنزلية والمدرسية ، كما تعمل على تهذيبه وإعلائه عوامل الدين والحضارة .

ولقد انصرف كثيرون من المحللين ، وعلى الأخص « ميلاني كلاين » ومن يعاونونها من رجال التحليل النفسى فى إنجلترا ، إلى دراسة العدوان وما يترتب عليه فى الأطفال وفى المصابين بالأمراض العقلية ، واستطاعوا الاهتداء إلى كثير من العمليات النفسية التى تنتج عنه وتتصل به فى حياة الأسوياء والمرضى من الناس على السواء .

ورغم هذا فهناك اعتراض آخر على القول بفطرية العدوان فى النفس الإنسانية أغلب من يقول به هم المشتغلون بعلم الاجتماع وعلم الأجناس . هم يسلّمون بأن العدوان كثيراً ما يطنى ويظهر فى سلوك الناس طغياناً قد يصل إلى حد يسىء فيه المرء إلى نفسه ويؤذى ذاته ، غير أنهم يرون هذا كله نتيجة لظروف البيئة التى ينشأ فيها ، وعوامل الحضارة التى يتأثر بها . وهم يذهبون إلى أن كل العدوان يرجع إلى التعجيز والإحباط والعوائق الخارجية . غير أن أصحاب هذا الرأى فى الواقع بقولهم هذا يتجاهلون تماماً لب المسألة ، ولا يحIRON جواباً إذا هم سئلوا عن مصدر الطاقة العدوانية التى تنطلق نتيجة لوجود عوامل الإعاقة والتعجيز والإحباط .

ومهما يكن من أمر هذه الاعتراضات ، فليس من شك أن البحث فى أسباب العدوان ومظاهره فى حياة الأفراد والجماعات ، وما يؤدى إليه من أشكال الصراع فى نفس الفرد وفى علاقاته بغيره ، هو من أهم ما ينبغى أن تنصرف إليه البحوث السيكلوجية . ولقد كان ولا يزال من أهم النواحي التى يتوفر على دراستها أصحاب التحليل النفسى منذ أن مهد سيجمند فرويد السبيل

إلى ذلك بما نشر عنها من آراء في هذا الكتاب .

* * *

وقد يتبين مما تقدم ما قصدنا إليه من ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية . ذلك أنه يصحح الفهم الأعور الحاطي لنظريات التحليل النفسي ، ويبيّن في وضوح جانباً هاماً من وجوه النظر التي يقول بها . وهو إلى جانب هذا مثل قوى رائع للتفكير العلمي الجامع ، ولما ينبغي أن يلتزمه الباحث في النفس الإنسانية من تؤدة وتحقيق وتواضع في سبيل الوصول إلى تفسير ما يشده من ظاهرات السلوك الإنساني . وإذا لم تكن نتطلع أن يكون كافة المشتغلين بالعلوم النفسية في مثل قامة فرويد ، فاعل المتعجلين منهم يتخذون فيما يبدو منه في هذا الكتاب من إلمام بعلوم الحياة والتشريح والطب والاجتماع والفلسفة والأدب — حتى بعض العربيّ منه وهو الطبيب الألماني في. أواسط أوربا — ومن التزام للأناة وأصول الملاحظة والتفكير العلمي مثلاً يعملون على التشبه به في إعداد أنفسهم ، وفيما يقومون به من بحث أو يعتنقون من آراء قد يخالفونه فيها أو يتفقدون وإياه .

وأغلب الظن أن القارئ سوف يلقى عنناً قد يثقل عليه لأول قراءة في هذا الكتاب . فالحق أنه كتاب صعب عويص ، بل لعله أغمض وأعوص ما نشره فرويد من كتب كثيرة . وقد تعود صعوبته إلى ما يحويه من فكرة طريفة غير مألوفة ، ولما يلجأ إليه في سبيل تأييدها من غوص في كثير من نواحي العلوم والمعارف الإنسانية . لكن الواقع أن المرء لو عاود قراءته في إمعان وتؤدة ، واستعان على ذلك بما ينبغي معرفته من علوم النفس والحياة لاستطاع أن يجد في صفحاته كثيراً من المتعة العقلية وأن يقف على ألوان طريفة من التفكير العلمي الرصين الذي يصحح كثيراً مما ألف الناس أن يفهموه عن التحليل النفسي ونظرياته .

ولقد حاولنا في الترجمة أن ننقل عبارات المؤلف في أكثر ما استطعنا من دقة ، وتوخينا في ذلك أن نؤدى ما ورد في التراجم الإنجليزية والفرنسية أداء أميناً ، دون أن نلجأ إلى أية توطئة أو استطراد قد يتلف الأصل . ورغم امتلاء الكتاب بكثير من المصطلحات الفنية وأسماء الأعلام إلا أننا قد اقتصرنا على شرح ما يلزم منها ، لمتابعة المعنى ، في بعض الهوامش المرقومة بين أقواس مربعة كي نفرق بينها وبين هوامش الكتاب الأصلية .

إسحق رمزى

دكتور في علم النفس من جامعة لندن
عضو الجمعية البريطانية للتحليل النفسى

القاهرة نوفمبر ١٩٥٢

الفصل الأول

من المسلّم به في نظريات التحليل النفسى أن سير العمليات النفسية ينتظم انتظاماً آلياً وفق « مبدأ اللذة » . ونحن نذهب في عبارة أخرى ، إلى أن ما تبدأ منه أية عملية نفسية ، مهما اختلفت الظروف ، إنما هي حال من التوتر الكريه المؤلم ؛ ومن ثم تتخذ لنفسها تلك العملية سبيلاً يؤدي آخر الأمر إلى نقص هذا التوتر والتخفف منه ، أى إلى تجنب « عدم اللذة » والحصول على اللذة . ويعنى هذا الأسلوب في النظر إلى العمليات النفسية التى نقوم بدراستها أننا نستخدم وجهة النظر « الاقتصادية » ؛ ونرى أن وصف العمليات النفسية من الناحية « الاقتصادية » إلى جانب وصفها من الناحيتين « المكانية » و « الديناميكية » ، هو أكمل وصف نستطيع أن نقدمه الآن . ونذهب إلى أنه يستحق أن ندعوه وصفاً « ميتاسيكولوجياً » (١) .

ونحن حين نقول بأهمية مبدأ اللذة لا نحفل بالوقوف على مدى اقترابنا من أو على مقدار اتخاذنا لأى مذهب فلسفى ورد الحديث عنه في تاريخ الفكر

(١) يقصد بـ « الميتاسيكولوجية » (أى ما بعد علم النفس) ، في التحليل النفسى دراسة خصائص اللاشعور ، أو بعبارة أخرى « سيلكوجية الأعماق » التى تهدف إلى دراسة العمليات النفسية من نواح ثلاث : الأولى دراسة القوى الدافعة والميول الغريزية التى تتطوى عليها النفس وهذه هي الناحية الديناميكية ؛ والثانية دراستها من حيث « المكان » أو الجانب الذى توجد به في النفس وهذه هي الدراسة المكانية أو الطبوغرافية ؛ والثالثة هي دراستها من حيث الوظيفة أى فيما يتصل بالدور الذى تقوم به خاصة بكية التوتر الذى تطيقه النفس أو الإشباع الذى تسعى إليه وهذه هي الناحية الكمية أو الاقتصادية (المترجم) .

الإنسانى . ذلك لأننا لم نصل إلى القول بمثل هذه الفروض النظرية إلا خلال ما كنا نحاوله وسعياً وراء وصف الوقائع التى كانت تقع تحت أنظارنا يوماً بعد يوم ، وما كنا نحاوله فى سبيل تفسيرها وشرح فحواها . فليست الأسبقية والإبداع ، أو الأصالة والتجديد من الأهداف التى نجرى وراءها من اشتغالنا بالتحليل النفسى ، بل إن الأسباب التى أدت بنا إلى القول بمبدأ اللذة لتبلغ من الجلاء والوضوح حدّاً ، لا يكاد أن يتأتى معه إغفالها أو عدم الاهتمام بها . ورغم هذا فإننا من الناحية الأخرى لن نتردد عن الاعتراف بالفضل لأية نظرية فلسفية أو سيكولوجية يمكن أن تفسر لنا تفسيراً دقيقاً معنى مشاعر اللذة أو « عدم اللذة » التى تتحكم فى الإنسان ويبلغ أثرها عليه كل مبلغ . لكنه مما يؤسف له ، أنه ليس هناك أية نظرية تجدى علينا فى هذا السبيل . ذلك لأن هذه الناحية من الحياة النفسية من أشد النواحي غموضاً وأكثرها استعصاء على البحث والفهم ؛ ولما كان من المحال أن نتجنب التعرض لذلك الجانب من النفس ، وإنه يلوح لى أن خير ما يمكن أن نفعله فى هذا الشأن هو أن نضع فرضاً نلتزم فيه أكثر ما يمكن التزامه من الرحابة والمرونة ، كى يلتقى بعض الضوء على ما نحن بصددده . وارتأيناه أن نبحث فى اللذة وعدم اللذة من ناحية كمية الاستثارة أو قدر الطاقة (الحرة - غير المقيدة) التى توجد بالنفس فأدى بنا هذا إلى أن وجدنا أن عدم اللذة يلزم زيادة هذه الطاقة أو تلك الكمية ، وأن اللذة تلازم نقصانها . ولسنا نذهب من هذا إلى القول بارتباط ساذج بين شدة مشاعر اللذة وعدمها وبين التغيرات التى تلازمها فى شدة الاستثارة ، كما أننا على ضوء التجارب الفسيولوجية والسيكولوجية ، أبعد ما نكون عن القول بوجود علاقة نسبية مباشرة بين هذه وتلك . بل نحن نرى أن العامل الحاسم فى شدة المشاعر هو مقدار النقصان أو الزيادة فى كمية الطاقة فى أية لحظة من اللحظات . ولقد تستطيع الأبحاث التجريبية أن تهدى فى هذا

الصدد إلى بعض الحقائق النافعة ، غير أنه من الخير أن يتجنب المحلل النفسى الغوص فى هذه المسائل قبل أن يجمع من المشاهدات المحدودة الثابتة ما يمكن أن يهديه فى مثل ذلك البحث .

على أننا لا نستطع أن نبقى على ما شعرنا به قبلا من عدم الاحتفال ، إذا نحن وجدنا أن عالماً بلغ من دقة النظر مبلغ ج . فيشر يقول برأى فى اللذة وعدم اللذة يقرب فى صميمه من الرأى الذى اهتدينا إليه نتيجة لأبحاثنا فى التحليل النفسى . ولقد أدلى فيشر برأيه فى كتابه الصغير^(١) على المنوال الآتى : « لما كانت الدوافع الشعورية تتصل أبدأً باللذة أو عدم اللذة ، حق لنا أن نرى أن هناك صلة نفسية بدنية بين اللذة وعدمها من ناحية وبين حالات الثبات وعدم الثبات من ناحية أخرى ، ويمكن أن نقيم على وجود هذه الصلة فرضاً سوف أعمل على إثباته بالتفصيل فى مكان آخر ، ألا وهو أن كل فعل "نفسى بدنى" يصعد إلى ما فوق "عتبة الشعور"^(٢) يصحبه من اللذة ما يتناسب وقربه — زيادة على حد معين — من التوازن التام ويصحبه من عدم اللذة ما يتناسب وقربه من عدم التوازن المطلق فيما يزيد على حد معين أيضاً . على حين أنه يقع بين الحدين اللذين يمكن أن ندعوهما من الناحية الكيفية بعتبتي اللذة وعدم اللذة منطقة من عدم الاحتفال الجمالى . »

G.T. Fechner : *Einige Ideen zur Schöpfungs — und Entwick* (١)]

[*Lungsgeschichte der Organismen*, 1873

(٢) « عتبة الشعور » هى المستوى الذى تبدأ عنده الخبرة فى الظهور فى نطاق الشعور . فن الحقائق الأساسية فى علم النفس وعلم وظائف الأعضاء أن مثير أية حاسة من الحواس لا بد أن تكون له قوة معينة حتى يمكن إدراكه أو يؤدى إلى استجابة من الاستجابات . وتختلف «عتبة الشعور» باختلاف الأفراد ، بل هى تختلف فى الفرد الواحد تبعاً للتعب أو التمرين وتغير هذا وذلك من الأسباب المعروفة والجهولة . (المترجم) .

إن الحقائق التي أدت بنا إلى القول بأن مبدأ اللذة يسيطر سيطرة تامة على الحياة النفسية ، أدت بنا أيضاً إلى التعبير عن هذا في غموض علمي ، يذهب إلى أن الجهاز التنفسي يعمل على خفض كمية الاستثارة التي يتعرض لها إلى أدنى حد ممكن أو أن يبقها على الأقل ، ثابتة لا تتغير . وليس هذا سوى مبدأ اللذة في صيغة أخرى ، ذلك لأنه إذا كان الجهاز التنفسي يعمل على خفض كمية الاستثارة إلى أدنى مستوى مستطاع ، ترتب على هذا أن كل ما يؤدي إلى زيادة تلك الكمية لا بد أن يعتبر مناقضاً لوظيفة ذلك الجهاز ، أي أنه يسبب شعوراً بعدم اللذة ، وعلى هذا المنوال يكون مبدأ اللذة مشتقاً من مبدأ الثبات ؛ غير أننا في الواقع قد اهتمدنا إلى مبدأ الثبات نفسه من الحقائق التي ألزمتنا أن نقول بمبدأ اللذة (١) . وسوف يتضح لنا ، بالإضافة إلى ذلك ، مما سوف نستعرضه فيما يلي أن نزعة الجهاز النفسي التي نتحدث عنها هنا يمكن أن تعتبر حالة خاصة من المبدأ الذي يقول به فيشر ، ألا وهو « الميل إلى الثبات » ذلك الميل الذي ربط به أحاسيس « اللذة وعدم اللذة » .

على أنه ينبغي ، برغم ذلك أن نؤكد أنه ليس من الصائب كل الصواب أن نتحدث عن غلبة مبدأ اللذة وسيطرته على سير العمليات النفسية . إذ لو كان الأمر على هذا المنوال لكانت الغالبية العظمى من عمليات الإنسان النفسية

[(١) يعود القول « بمبدأ الثبات » إلى الأيام الأولى من اشتغال فرويد بالمباحث النفسية . وكان أول من تعرض لدراسة هذا المبدأ بالتفصيل زميله « بروير » ، في القسم النظري من كتابهما « دراسات في المستريا » (١٨٩٥) . ويذكر بروير في هذا الكتاب تعريفاً لمبدأ الثبات (في عبارات شبه فسيولوجية) فيقول إنه « الميل إلى إبقاء استثارة المخ في مستوى ثابت » . وهو في نفس الفقرة ينسب القول بهذا المبدأ إلى فرويد . والواقع أن هناك إشارة أو اثنتين ، موجزتين كل الإيجاز ، عن مبدأ الثبات سبق بهما فريد ما قاله بروير ، رغم أن ما ذكره فرويد عن هذا لم ينشر إلا بعد وفاته (انظر « خطاب إلى يوسف بروير » ، ١٨٩٢ . في الجزء الخامس من مجموعة المقالات ؛ باللغة الإنجليزية ، ١٩٥٠)] .

مصحوبة حتماً باللذة أو مؤدية إليها . على حين أن الخبرة المألوفة تنفي مثل هذه النتيجة نفيًا تامًا . غير أنه لا مفر من القول بأن في النفس الإنسانية نزعة قوية وميلاً غالباً إلى التزام مبدأ اللذة ، لكن هناك من القوى والظروف ما يعارض تلك النزعة معارضة تؤدي إلى أن الأمور لا تنتهي في كافة الأحوال إلى نهاية توائم مبدأ اللذة ، وهالك ما يذكره فيشر بهذا الصدد (ص ٩٠ من الكتاب المذكور) : « بما أن النزعة إلى هدف معين لا تستلزم على الدوام الوصول إلى هذا الهدف ، وبما أننا لا نستطيع بصفة عامة تحقيق الغايات التي نهدف إليها إلا بقدر معين ... » .

فإذا بدأنا نعرض للبحث في الظروف التي تؤدي إلى تعطيل العمل بمبدأ اللذة وإلى وقف تنفيذه ، وجدنا أنفسنا في ميدان أمين مطروق نعرف فيه لخطانا مواضعها ، ونستطيع أن نعتمد فيه على معين فياض من ألوان الخبرة التي اهتدينا إليها عن طريق التحليل النفسي .

وأول مثل للعقبات التي يصطدم بها مبدأ اللذة عقبة وقفنا عليها منذ زمن طويل ، وبلغت معرفتنا بها حدًا نستطيع معها أن نقول بسواء ورودها وانتظام حدوثها . فمن المعروف جيداً أن الجهاز النفسي للإنسان يهدف بطبيعته ، ووفقاً لتصميم تكوينه ، إلى التزام مبدأ اللذة ، وهذه طريقة « أولية » ^(١) للعمل .

(١) العمليات الأولية هي كافة العمليات التي تجري في اللاشعور أو التي يقوم بها « الهو » في سبيل الحصول على الإشباع ، وسعيًا وراء إرضاء الميول الفطرية التي لم تعدل . وتظهر هذه العمليات على أخلص أشكالها في الأحلام . وهذه العمليات تتجاهل الزمن والواقع ولا تخضع للاعتبارات المنطقية المألوفة من أمثلتها عملية التكثيف ومنه مثلاً إخراج صورة شخص من عدة أشخاص أو اسم جديد من عدة أسماء مختلفة وعملية النقل (أو الإبدال) وهي إلصاق الأهمية الوجدانية لأمر أو لشخص بغيره من الأمور أو الأشخاص ، أو عملية الإخراج المسرحي وهي الجمع بين الماضي والحاضر بل المستقبل في فترة واحدة كما تخرج القصة على المسرح . . . إلخ (المترجم) .

غير أن هناك من الصعاب التي يفرضها العالم الخارجى ما يجعل السير وفق هذا المبدأ سيراً مطلقاً دقيقاً من الأمور الصعبة العسيرة ، بل من الأمور التي لا يتأتى عنها سوى تعريض الكائن الحى لأشد المخاطر ، بل إلى إلحاق الأذى به ، ومن ثم تؤدي غرائز « الأنا »^(١) التي تعمل للمحافظة على البقاء إلى أن تستبدل النفس بمبدأ اللذة مبدأ الواقع الذى يهدف هو أيضاً إلى الحصول على اللذة آخر الأمر ، غير أنه يدفع بالمرء إلى تأجيل الإشباع ، وإلى التخلي عن كثير من الأمور التي تتيح ذلك أو تؤدي إليه ، بل يدفع به إلى تقبل عدم اللذة قبولاً مؤقتاً خلال السير في ذلك الطريق الملتوى الطويل الذى ينتهى به إلى الظفر باللذة . ورغم هذا فإن الدوافع الجنسية ، تلك الدوافع التي لا يتيسر أن نتناولها بالتربية والتهديب ، تبقى أمداً طويلاً وهي لا تلتزم في نشاطها سوى مبدأ اللذة ؛ وكثيراً ما يقع أن يسيطر هذا المبدأ سيطرة مطلقة على الدوافع الجنسية أو يغلب على نشاط « الأنا » نفسه غلبة تطيح بمبدأ الواقع وتنتهى إلى إيقاع أكبر الأذى بالكائن الحى جميعاً .

على أنه مما لا شك فيه أن التخلي عن مبدأ اللذة واتخاذ مبدأ الواقع لا يفسر إيجابياً ضئيلاً من الأحاسيس المؤلمة ولا يلقي ضوءاً على سر الشعور بالألم المرير الذى يعرض للإنسان . فهناك شكل آخر من الأحاسيس المريرة المؤلمة ، لا يقل حدوته عن ذاك ، يتأتى منه ألوان الصراع والتشاحن التي تقع في الجهاز النفسى حين تكون « الأنا » بسبيل النمو نحو شكل من النظام أكثر ارتفاعاً وأدق تركيباً وتعقيداً . وإنه يمكن القول بأن كافة الطاقة التي ينطوى عليها

(١) « الأنا » هو ذلك الجانب من النفس الذى يتميز بنتيجة للاتصال بالعالم الخارجى ، والذى يقوم بوظيفة «وقوف على واقع» و بوظيفة قبول بعض الرغبات أو المطالب التي تصدر عن الدوافع الفطرية بعد ضبطها والانتقاء منها . « والأنا » يشمل الشعور : على أن بعضه - رغم ذلك - لا شعورى . (المترجم) .

الجهاز النفسى إنما تصدر عن الغرائز والدوافع التى فطر عليها الإنسان ، غير أنه لا يقيض لكافة تلك الميول الموروثة أن تصل إلى درجة واحدة من التحول والنمو. إذ أنه كثيراً ما يقع ، خلال هذا النمو ، أن يستحيل التوفيق — فيما يتصل بالأهداف والمطالب — بين بعض هذه الغرائز وبعضها الآخر ، أو بين بعض نواحي الغرائز ونواحي بعضها الآخر ، الذى يكون قد تمكن من الاندماج فى وحدة « الأنا » الشاملة ، ومن ثم تستبعد تلك الميول الغريزية من هذه الوحدة عن طريق الكبت ، وتستبقى فى المستويات الدنيا للنمو النفسى ، ويحال بينها — وقتاً ما — وبين الإشباع حيلولة مطلقة . على أن تلك الغرائز تنجح أحياناً ، وكثيراً ما تنجح الميول الجنسية المكبوتة فى شق طريقها نحو الإشباع المباشر ، أو غير المباشر خلال سبل خافية ملتوية . لكن هذا النجاح الذى كان يرجى منه أن يؤدى إلى الظفر باللذة فى الظروف الأخرى يكون مصدراً « لألم » الأنا . هكذا يقع أن يخرق مرة أخرى مبدأ اللذة الذى كان قد انتهى الصراع القديم بالعمل على كبته ، فى نفس الوقت الذى كانت بعض الدوافع فيه تعمل جاهدة على الفوز بأكبر جانب ممكن من اللذة تحقيقاً لذلك المبدأ وانتصاراً له . ورغم أننا لم نقف بعد على كافة تفاصيل العملية النفسية التى تؤدى بالكبت إلى تحويل ما كان يرجى منه الحصول على اللذة إلى مصدر لعدم اللذة ، ولا نستطيع بعد أن نصف تلك العملية وصفاً شافياً واضحاً ، إلا أنه من المؤكد أن كل « ألم » يتصل بالعصاب والأمراض النفسية ، إنما هو من ذلك النوع ، أى أنه فى صميمه لذة لم يمكن الظفر بها على أنها كذلك .

ومع أن مصدرى عدم اللذة اللذين أسلفنا الحديث عنهما لا يستغرقان جميع الخبرات النفسية المؤلمة التى تعرض للإنسان إلا أنه يمكن القول — فى شيء غير قليل من الثقة — بأنه إن وُجد غير هذين المصدرين لم يكن ذلك مما ينتقص من سيطرة مبدأ اللذة وغلبته . إن أغلب « الألم » الذى نستشعره

إنما هو من النوع الإدراكي ، هو إدراك للضغط الذي يتأتى من الغرائز الجائعة التي تتطلب الإشباع ، أو إدراك لأمر من العالم الخارجى يمكن أن يكون مصدراً للألم حقاً أو يمكن أن يثير فى الجهاز النفسى ترقباً مؤلماً ويبعث فى النفس توقعاً « للخطر » . إن رد الفعل على مطالب تلك الغرائز الجائعة وعلى توقع تلك الأخطار الداهمة ، ذلك الرد الذى يتطلب من الجهاز النفسى أن يستخدم كل ما ينطوى عليه من طاقة ونشاط يمكن أن ينظم إما وفق مبدأ اللذة خالصاً غفلاً ، أو وفقاً لمبدأ الواقع ^(١) بعد تعديله . وعلى هذا يبدو أننا لسنا بحاجة إلى العثور على قيد يحد من نشاط مبدأ اللذة أكثر من ذلك القيد ، ومهما يكن من أمر فليس هناك خير من البحث فى إرجاع النفس على الأخطار الخارجية يمكن أن يزودنا بالمعلومات الجديدة وأن يهدينا إلى كيفية دراسة المسائل التي تتصل بالمشكلة التي نحن بصدددها .

(١) مبدأ الواقع : هو ميل الجهاز النفسى إلى تقييد الإشباع المباشر للغرائز البدائية حتى يكون إشباعها آخر الأمر متفقاً مع الحدود التي تفرضها الظروف الخارجية بما فيها من أوضاع المجتمع والعرف والأخلاق ، وما إلى هذا وذلك (المترجم) .

الفصل الثانى

إذا ما لحقت بالمرء صدمة آلية خطيرة ، أو تعرضت حياته للخطر فى إحدى حوادث السكك الحديدية أو ما يشابهها ، فقد تنشأ عن ذلك حالة تنبّه لها الأذهان منذ وقت بعيد ، وأطلقت عليها عبارة « عصاب الصدمة » ولقد أدت الحرب الطاحنة ، التى انتهت أخيراً ، إلى إصابة عدد ضخم من الناس بهذه الأمراض النفسية ، كما أن تلك الحرب قد قضت على التزعة التى كانت تدفع إلى تفسير مثل تلك الأمراض على أنها نتيجة لإصابة عضوية تلحق بالجهاز العصبى إذا ما نزلت به حادثة آلية عنيفة (١) . وتبدو أعراض عصاب الصدمة على ما يقرب من عين الصورة التى تبدو بها الهستيريا فى كثرة الأعراض الحركية التى تظهر على المرضى بذلك المرض . غير أن عصاب الصدمة يفوق الهستيريا فيما يظهر على المريض من آلام ذاتية شديدة ، حتى يشبه فى هذا مرض الهجاس السوداوى أو مرض الملانخوليا ، وفيما يبدو على المريض من دلالات الإعياء الشامل والاضطراب والفوضى التى تلحق حياته العقلية بأجمعها . ولم يستطع العلم بعد أن يقف على جميع أسرار عصاب الحرب أو على سر عصاب الصدمة فى زمن السلم ، ولم يوفق بعد إلى أن يلتقى على هذا أو ذاك ضوء كافٍ . أما فيما يتعلق بعصاب الحرب فإنه مما كان يحل الموقف ويزيده تعقيداً فى نفس الوقت ، أن نفس المرض قد يصيب بعض الناس دون أن تسبقه أية صدمة

[(١) انظر كتاب « التحليل النفسى لعصاب الحرب » بأقلام : فرويد ، فيرينزى ، أبراهام سيميل وجونز (١٩١٩)] .

آلية خطيرة أو تصادفه أية حادثة ذات بال . على حين أن عصاب الصدمة المؤلف يتميز بمظهرين يمكن أن نتخذهما مفتاحاً للبحث : أولها أن العامل المهم الذى يسببه يبدو كأنه ينطوى تحت عنصر المفاجأة والفرع ؛ والثانى أنه إذا لحقت بالمرء إصابة أو جرح أدى هذا بصفة عامة إلى منع وقوع المرض النفسى به . ويظن الناس أن الفرع و « الخوف » و « الجزع » ألفاظ مترادفة مع أن هذا خطأ بعيد عن الواقع ، وما أيسر أن ندرك الفرق بين هذه العبارات فى علاقتها بالخطر . فالجزع يدل على حالة معينة من توقع الخطر والتأهب له سواء أكان هذا الخطر معروفاً أم غير معروف ؛ أما الخوف فهو حالة يبعث إليها أن يصادف المرء خطراً واقعياً ؛ على حين أن الفرع هو الحالة التى تعرض للمرء إذا واجهه خطر لم يكن يتوقعه ويشيع فى هذا عنصر المفاجأة . ولست أظن أن الجزع يمكن أن يؤدي إلى عصاب الصدمة ، لأن فى الجزع أمراً يبق المرء من الفرع ومن ثم يحميه من العصاب الذى يؤدي إليه الفرع . وعلى أية حال فهذه نقطة سوف نتناولها بالبحث فى مكان تال . (انظر ص ٣٨ وما يليها)

ويمكن أن نعتبر الأحلام خير وسائل البحث التى يمكن أن نأمن إليها فى الكشف عن عمليات النفس العميقة . إذا اهتدينا بهذا ، وجدنا أن أحلام المريض بعصاب الصدمة تتميز بهذه الخاصة : هى أنها تواصل العودة به إلى الموقف الذى حلت به النكبة فيه ، وإذا به أبدأً يستيقظ وقد أخذه الرعب مرة أخرى واشتد فزعه . وهذا أمر لم يفطن الناس له كما تنبغى الفطنة ، وحقيقة تستدعى البحث والإيضاح ، إذ أن الناس لا يرون فى معاودة الحادث لذهن المريض ، حتى فى خلال نومه ، سوى دلالة على شدة الأثر الذى تركته الصدمة فى نفسه ، حتى يمكن أن يقال إنه قد وقع بالمريض تثبيت نفسى على الصدمة .

ومنذ عهد طويل عرفنا ألوان التثبيت على الخبرة التى أدت إلى المرض فيما

يتصل بالهستيريا . فقد قرر فرويد منذ عام ١٨٩٣ « أن المصابين بالهستيريا يعانون ، أشد ما يعانون ، بما يبق في الذاكرة » . وفيما يختص بعصاب الحرب فقد ذهب بعض الباحثين مثل « فيرينزي »^(١) و « زيميل » إلى تفسير بعض الأعراض الحركية على أنها تثبتت على الحادثة أو الصدمة .

غير أنه لم يتناه إلى أن المرضى المصابين بعصاب الصدمة تشغلهم في حياة الصحو ذكرى ما نزل بهم من قبل . بل الأغلب أنهم يجاهدون كي لا تخطر لهم ذكرى الحادث الذي أصيبوا به . فإذا قلنا إن أحلامهم بالليل يلزم أن تعود بهم إلى الموقف الذي أدى إلى وقوع المرض كان هذا قولاً يدل على خطأ في فهم طبيعة الحلم . ذلك لأنه مما يوائم تلك الطبيعة أن تحتوى أحلام أولئك المرضى على صور تترد أصولها إلى الوقت الذي كانوا يستمتعون فيه بالصحة الموفورة أو تشير إلى الأمل في الشفاء .

كيف نستطيع أن نفسر الدافع إلى أحلام هؤلاء المرضى التي تدور حول الصدمة وحول الألم بينما نحن نعرف أن من طبيعة الحلم تحقيق الرغبات ؛ إلا أن تكون وظيفة الحلم عندهم قد أصابها الاضطراب هي الأخرى كما أصاب غيرها ، اضطراباً حولها عن الأهداف العادية المألوفة أو أن نلتبس التفسير في تلك النزعات الماسوكية^(٢) التي تحير الألباب ، تلك النزعات التي تصدر عن الأنا .

(١) شاندور فيرينزي Sandor Ferenezi طبيب مجري (١٨٧٤ - ١٩٣٣) من رواد التحليل النفسي ومن أوائل من عاونوا فرويد في تقلمه . وله عدة مؤلفات ترجم منها إلى اللغة الإنجليزية : Contributions to Psycho-analysis, Sex & Psycho-analysis, Further Contributions. هذا عدا مباحث أخرى منشورة في المجلة الدولية للتحليل النفسي . وإلى فيرينزي تعود الفكرة في إنشاء الجمعية الدولية للتحليل التي اقترحها في مؤتمر دورمبرج ١٩١٠ . وعنه قال فرويد ١٩١٤ « لم تنجب الحجر حتى الآن سوى واحد من المساهمين (في حركة التحليل) غير أنه ليرجع في الأهمية والوزن جميعه بأكملها » (المترجم) .

(٢) الماسوكية Masochism هي حصول الشخص على الإشباع الجنسي من تلقى الأذى النفسي أو البدني الذي ينزله به المحبوب . (المترجم) .

* * *

فلنترك الآن موضوع عصاب الصدمة على خفائه وإقنامه ، ولنبحث في ناحية من نواحي نشاط الجهاز النفسى أثناء أدائه لإحدى وظائفه العادية المألوفة في مطالع العمر - أعنى لعب الأطفال .

قام باستعراض مختلف النظريات عن لعب الأطفال ، والبحث فيها أخيراً ، على ضوء التحليل النفسى ، « سيجمند بفافار » في بحث نشرته مجلة إيماجو (المجلد الخامس ١٩١٩) الذى أود أن أورد القراء إليه . وقد حاول في بحثه أن يصل إلى الدوافع التى تدفع بالأطفال إلى اللعب ، غير أنه لم يحفل كثيراً بالناحية الاقتصادية أى بالبحث في صلة اللعب بمقدار ما يؤدى به إلى اللذة . ورغم أنى لم أكن أنتوى القيام بدراسة شاملة لكافة هذه الظاهرات ، فقد انتهزت إحدى الفرص العارضة التى سنحت لى للبحث في أفعال ولد صغير كان يبلغ من العمر ثمانية عشر شهراً . ولكن الأمر لم يقتصر بى على المشاهدة العارضة ، لأنى عشت عدة أسابيع في دار واحدة ، مع ذلك الطفل وأهله ، وانقضى من الوقت زمن طويل قبل أن يتضح لى معنى أفعاله الحيرة التى كان يواصل تكرار القيام بها .

لم يكن ذلك الطفل سابقاً لسنه في أية ناحية من النواحي العقلية ، كان حين بلغ شهوره الثمانية عشر لا يتفوه إلا بقليل من الكلمات المفهومة إلى جانب بعض الأصوات ذات الدلالة التى يستطيع فهمها من يعيشون معه . وكانت علاقته بوالديه وبالخادمة علاقة طيبة ، وكانت سمعته حسنة وجميع من حوله يشهدون له بالسلوك « الطيب » . كان لا يزعج أبويه ليلاً ، ويطيع طاعة دقيقة تلك الأوامر الخاصة بعدم لمس بعض الأشياء أو العبث بها ، أو تلك الخاصة بعدم الدخول أو الدوران في بعض غرف الدار . وأهم من هذا كله أنه

يكن يبكى ألبنة أو يصيح إذا خرجت أمه من البيت وتركته ساعات بأكملها رغم أنه كان متعلقاً بها تعلقاً شديداً ؛ إذ أنها لم تكن قد أرضعته من ثديها فحسب ، بل كانت هي التي عنيت بتربيته وقامت برعايته وحدها دون معونة أحد . ومع ذلك فإن هذا الطفل الصغير المهذب كان يمارس بين الحين والحين عادة مزعجة تبعث على السخط ، فقد كان يقذف كل ما يقع تحت يده من أشياء إلى أحد أركان الحجرة أو تحت الفراش وما إلى ذلك ؛ ولم يكن بالأمر اليسير جمع هذه الأشياء أو العثور عليها . وكان إذ يقذف بهذه الأشياء بعيداً تبدو عليه أمارات المتعة والارتياح ويخرج صوتاً طويلاً « أو و وه » ، ولم يكن هذا على حد قول أمه — وكان ذلك ما أراه أيضاً — مجرد صوت من أصوات التعجب بل كان يعنى به « لقد ذهب بعيداً » . ففهمت آخر الأمر أن هذه كانت لعبة ، وأن الطفل كان يستخدم كل دماه كي يلعب بها لعبة « قد ذهب بعيداً » أو « اختفت الأشياء » . وحدث يوماً أن شاهدت ما أيد الرأي الذي ذهبت إليه . كان لدى صاحبنا الصغير « بكرة » التفّ حولها بعض الخيط ، فلم يخطر له مرة واحدة أن يجرها خلفه وأن يلعب بها لعبة الحصان والعربة ، بل واصل قذفها بعيداً في مهارة عجيبة خلف سريره ، وهو ممسك بالخيط حتى إذا ما اختفت البكرة قال عبارته : « أو و وه » ثم عاود جذبها مرة أخرى وبدأ عليه الارتياح قائلاً في سرور « ها » يعنى « هنا » . كانت إذن هذه لعبته بأكملها : الاختفاء ، والعودة ، على أنه لم يكن يظهر جلياً منها لمن يشاهدون ذلك سوى الجانب الأول . ذلك الجانب الذي كان يكرره الطفل دون ملل أو عناء كأنه لعبة يستمتع بها في نفسه ، رغم أنه كان يستمد أكبر المتعة دون شك من الجانب الثانى من اللعبة (١) .

[(١) زاد هذا التفسير تأييداً ملاحظة أخرى . حدث يوماً بعد أن بقيت الأم عدة ساعات خارج =

لم يكن معنى اللعبة إذن عسيراً على الفهم . فقد كانت تتصل بما وصل إليه الطفل من تكيف حسن ناجح ، أى بقدرته على التخلي عن مطالب إحدى الغرائز تخلياً كان من نتيجته أن استطاع ترك أمه تخرج من البيت وتركه دون أن يصدر عن الطفل احتجاج أو جلبة . ولقد عوض نفسه عن ذلك أو صحح الموقف - إن استطعنا استخدام هذه العبارة - بأن أخذ يقوم بتمثيل هذه القصة التى تدور حول رحيل أمه وعودتها مستخدماً ما كان يقع بين يديه من الأشياء . وليس من المهم أيضاً فى تقدير القيمة الوجدانية لهذه اللعبة أن نعرف إن كان الطفل قد اخترعها بنفسه أو أنه استوحاها من بعض الأشياء أو الأشخاص . فإن اهتمامنا ينبغى أن يدور حول ناحية أخرى : ذلك أن من المحقق أن رحيل الأم لم يكن أمراً يرتاح له الطفل ، أو أمراً لا يحفل به . فكيف يمكن أن نوفق بين مبدأ اللذة وبين تكرار الطفل لهذه الخبرة المؤلمة واتخاذها مداراً لألعابه ؟ قد يكون الجواب أن الرحيل لا بد من تمثيله فى اللعب كمقدمة لازمة للصورة المفرحة ، وأن غاية اللعبة الحقيقية كانت تنطوى بين ثنايا هذا الجانب الأخير . على أنه مما ينافى هذا التفسير ، أن الفصل الأول من اللعبة ، أى الرحيل ، كان لعبة قائمة بذاتها يمارسها الطفل وحدها أكثر بكثير من الرواية كلها بما فيها الخاتمة المفرحة التى ترمز إلى عودة الأم .

إن تحليل حالة واحدة من هذا النوع لا يؤدي بنا إلى نتيجة مقنعة حاسمة ، بل إن الملاحظة التى خلعت من التحيز لتبعث على الظن بأن الطفل إذا كان قد جعل من تلك الخبرة مدار لعبة يلعبها فقد كان هذا نتيجة لأسباب ودوافع

= الدار أن حياها الولد عند عودتها بقوله « توتوأو » ، ولم يظهر لهذه العبارة أى معنى أول الأمر . غير أن مدلولها اتضح على ضوء ما فعله الطفل أثناء غيبة أمه الطويلة ، وكيف أنه عثر على وسيلة للاختفاء هو نفسه : كان قد رأى صورته منعكسة فى مرآة كبيرة فا كان منه إلا أن جثم على ركبتيه ، الأمر الذى أدى طبيعاً إلى اختفاء صورته من المرآة .

أخرى فقد كان موقفه في مطلع الأمر « سلبياً » ، أى أن الخبرة دهمته ووجد نفسه بإلزامها قليل الحيلة ، على أنه بعد ذلك اتخذ موقفاً إيجابياً : بأن أخذ يعيد التجربة ويكررها في صورة لعب ، رغم أنها لم تكن بالأمر الذى يبعث على المتعة والسرور . ويمكن أن نرد هذا العمل إلى الدوافع الذى يبعث المرء على السيطرة على المواقف (غريزة السيطرة) ، ذلك الدافع الذى لا يعتمد على ما في الموقف من متعة أو عدمها . غير أنه يمكن تفسير هذه المسألة على وجه آخر . إن قذف الشيء قذفاً يؤدي إلى اختفائه يمكن أن يكون إشباعاً للرغبة في الانتقام ، تلك الرغبة التي كان الطفل يقمعها في الواقع لكنه كان يشعر بها ضد أمه من أجل ذهابها بعيداً عنه ، حتى لكأنه كان بذلك يتحداها ، وكأنه كان يقول : « طيب ، طيب ! ! فلتذهبي ، إذ لست أريد بقاءك ، ولست بحاجة إليك ، وهأنذا أبعدك عني بنفسى » . تقدمت السن بهذا الطفل ، وبعد عام من مشاهدتي لألعابه التي نتحدث عنها ، أى حين بلغ العامين والنصف تقريباً ، أخذ يقذف إلى الأرض بلعبة أخرى لم يكن يميل إليها ويقول « اذهب إلى الجبهة » . وكان ذووه قد أخبروه من قبل أن أباه غائب لأنه كان في ميدان الحرب ، غير أنه لم يكن يبدو من الطفل أى شوق إلى أبيه ، بل كانت تلوح عليه دلالات واضحة من الارتياح إلى استحواذة على أمه وحيداً دون أن يعكر عليه صفو ذلك أى دخيل أو غريم (١) . ومن المعروف عن الأطفال أنهم يعبرون عن مشاعر الكراهية والحقْد بقذف الأشياء بعيداً رمزاً عن الأشخاص الذين يكرهونهم . ومن ثم حق لنا أن نتساءل عما إذا كانت الرغبة الملزمة التي تدفع المرء إلى أن يهضم ويمثل في حياته النفسية ما مر بخبرته من

[(١) حين كان هذا الطفل يبلغ الخامسة والتسعة الشهور توفيت أمه . على أنه ، وقد ذهبت عنه هذه المرة بالفعل إلى غير عودة ، لم يبد عليه أى حزن لفقدائها - وربما كان سبب ذلك أنها كانت قد ولدت في ذلك الوقت طفلاً ثانياً ، وكان هذا قد أثار في صاحبنا غيرة حادة شديدة .]

أحداث مؤثرة وأن يسيطر عليها ، إنما هي رغبة وإجبار قائم بذاته مستقل عن مبدأ اللذة . على أن الطفل في هذه الحالة التي نحن بصدددها ، يمكن أن يكون تكراره للخبرة المؤلمة عن طريق اللعب مصدراً للذة من نوع آخر لكنه ، مع ذلك ، مصدر للحصول على اللذة عن طريق مباشر .

ومهما استزدنا في دراسة لعب الأطفال ، فلن نستطيع أن نصل إلى ما يمكن أن يؤدي بنا إلى رأى حاسم يقطع ترددنا بين هذين الرأيين . نشاهد أن الأطفال يكررون في لعبهم كل ما كان له أثر كبير في حياة الواقع ، وهم بذلك يتخففون من قوة هذا الأثر ، حتى لكأنهم بهذا يسيطرون على الموقف . غير أنه من الواضح ، من الناحية الأخرى ، أن لعبهم بأكمله يتأثر كله برغبة ملحة تلعب دوراً هاماً في الطفولة ، ألا وهي الرغبة في أن يكونوا كباراً ، وأن يتمكنوا من فعل ما يفعله الكبار . ومن المشاهد أيضاً أن إيلاام الخبرة التي مرت بالطفل لا يمنعه على الدوام من استخدامها مداراً للعبة . فلو أن طبيباً فحص حنجرة أحد الأطفال أو أجرى عليه عملية جراحية صغيرة لكانت هذه بالطبع ذكريات أليمة ، لكن الطفل سرعان ما يتخذها موضوعاً لألعابه ، وهو يستمد من هذا متعة ولذة تتأتى من ناحية أخرى لا ينبغي علينا إغفالها . ذلك أن الطفل إذ يترك موقفه السلبي الذي أدى إلى وقوع الألم به ويتخذ موقفاً إيجابياً يدفعه إلى أن ينزل في اللعب بطفل آخر مثل ما نزل به هو— قبل ذلك — من أوجاع إنما هو ينتقم لنفسه من زميله في اللعب نيابة عن الطبيب وما أوقعه به .

ومهما يكن من أمر فإننا نخرج من هذا البحث بأن تفسير اللعب على هذا المنوال بأنه لون من ألوان التقليد إنما هو تفسير واه لا نفع فيه . ويمكن أن نزيد على هذا أن فنون التمثيل والتقليد الفني التي يمارسها الكبار ، تلك الفنون التي تختلف عن سلوك الأطفال في أنها تبغى التأثير على النظارة تأثيراً مباشراً .

لا تعفيهم من مشاهدة أشد المواقف المؤسسية مثل ما يقع في المآسى التي يستمتع بها المشاهدون رغم تألمهم منها . وبثبت لنا هذا أنه رغم سيطرة مبدأ اللذة فهناك من السبل والوسائل ما يكفي لإبقاء الأمور المؤلمة في الذاكرة ولجعلها شغلا شاغلا للنفس . هذه الأحوال والمواقف التي تؤدي آخر الأمر إلى زيادة الحصول على اللذة أمر ينبغي أن تبحث فيه فلسفة الجمال بحثاً يعتمد على وجهة النظر الاقتصادية إلى نشاط النفس . على أنه ليس لمثل هذا البحث أى نفع لنا فيما نحن بصددده ، لأن تلك الفلسفة تفرض وجود مبدأ اللذة وسيطرته ، ولا تعلمنا شيئاً عن مظاهر الميول الأخرى التي تعلو عن مذهب اللذة ، وهي ميول مستقلة عنه وأقدم في الأصل منه .

الفصل الثالث

إن خمسة وعشرين عاماً طويلاً من العمل والبحث قد أدت إلى أن تستهدف طريقة التحليل النفسي أغراضاً مباشرة تختلف اختلافاً تاماً عن الأغراض التي كانت تستهدفها من قبل . فقد كان الطبيب المحلل في أول الأمر يقتصر في أهدافه على الالتماس ما كان ينجب في لاشعور المريض ، دون أن يفتن هذا إلى وجوده ، وأن يوفق المحلل بين تلك العناصر اللاشعورية التي كشف عنها ويدل بذلك إلى المريض في الوقت المناسب . وهكذا كان التحليل النفسي ، فوق كل شيء ، فناً يعمل على التفسير . غير أنه لما تبين عجز هذا الفن عن مهمة العلاج ، صار الهدف الذي نرمي إليه أن نلزم المريض بتأييد ما اهتدينا إليه خلال التحليل بالاعتماد على ما وعته ذاكرته واسترجاع ما مر بخبرته غير أنه كان يقف دون هذه الغاية ما كان يقع بالمريض من أنواع المقاومة ، ومن ثم صار فن التحليل يقوم على التبكير بالكشف عن هذه المقاومات ما أمكن التبكير ، وعلى جذب انتباه المريض إليها ، وعلى تعليمه كيف يتخلى عنها باستخدام ما لنا من أثر عليه هو أثر إنسان على آخر - وهنا كان يدخل عنصر الإيحاء ، الذي يستمد قوته من التحويل (١) .

(١) التحويل Transference هو في الأصل انتقال الأثر الوجداني الذي يترتب على فكرة أو موقف نفسي إلى فكرة أو موقف آخر ؛ ويقصد بالتحويل عادة أن تنتقل مشاعر المريض الطفلية - أثناء العلاج - سواء كانت مشاعر المحبة أو الكراهية من المواقف أو الأشخاص التي ابتعثها أصلاً ، وتدور حول شخص المحلل نفسه . (المترجم) .

ورغم ذلك فإننا كلما تقدمنا في هذا السبيل ازددنا يقيناً من أن هذه الطريقة هي الأخرى لن تؤدي إلى تحقيق الغاية التي نرعى إليها ، ألا وهي إخراج ما في اللاشعور إلى الشعور . فالمريض لا يستطيع أن يذكر كل ما هو مكبوت في أعماق نفسه ، بل هو قد لا يتمكن حتى من استرجاع الجانب الأساسي منه ، استرجاعاً لا يتأق بدونه أن يقتنع بصحة النتائج التي ندلى بها إليه ، فإذا به ملزم بأن يعيد في الحاضر ما هو مكبوت بدلاً من أن يستعيده في ذاكرته على أنه جانب من الماضي ، استعادة كان يؤثر المعالج أن يراه يقوم بها . ويظهر هذا التكرار في شكل دقيق ويلتزم من الأمانة ما ينفّر ، وهو إلى هذا يتضمن على الدوام جانباً من حياة الطفل الجنسية ، وبالتالي من عقدة أوديب^(١) وما يتشعب عنها ، ويقع هذا كله في ميدان التحويل أي ميدان العلاقة مع الطبيب . فإذا ما وصل العلاج إلى هذه النقطة ، أمكن أن يقال إن العصاب السابق قد حل محله عصاب جديد ، ألا وهو عصاب التحويل . وهنا يتوخى الطبيب أن يحدّ من مدى هذا العصاب التحويلي ما أمكنه الحد ، وأن يضيق من نطاقه ما أمكن التضييق ، وأن يدفع إلى نطاق التذكر أكثر ما يمكنه أن يدفع ، وألا يترك من الأمور للتكرار في الحاضر إلا أقلها ولا يترك مريضه يعيد منها في حياته إلا أيسر نذر ممكن . وتختلف النسبة بين التذكر والإحياء من حالة إلى أخرى . ولا يستطيع الطبيب ، بصفة عامة ، أن يجنب المريض هذا الوجه من العلاج ، إذ ينبغي عليه أن

(٢) عقدة أوديب Oedipus complex : من الأسطورة الإغريقية عن أوديب بن لايس ملك طيبة الذي كتبت عليه الآلهة أن يقتل أباه ويتزوج أمه . . . إلى آخر القصة . ويقصد بهذه العقدة في نظريات التحليل مجموعة الأخيلة والأوهام والوجدانات التي تتصل برغبة الطفل في الاستحواذ على الوالد من الجنس الآخر : وهذه هي عقدة أوديب الإيجابية ؛ أما الرغبة في الاستحواذ على الوالد أو الوالدة من نفس الجنس فتعرف اليوم باسم عقدة أوديب السلبية . وتنطوي هذه العقدة في كلا الحالين على أخيلة وأوهام تقوم على الرغبة في التخلص من الوالد الغريم (المترجم) .

يتركه يعيش مرة أخرى جانباً من حياته المنسية ، على أنه ينبغي أن يعنى بأن يبقى للمريض بعض التباعد والحياد حتى يستطيع على ضوئه أن يدرك أبدأ أن الواقع الظاهر إن هو إلا ترجيع وانعكاس لماض غاب عن الذاكرة . فإذا أمكن تحقيق هذه الغاية انتهى الأمر باقتناع المريض ، ونتج عن هذا شفاؤه الذى يعتمد على هذا الاقتناع .

وإذا كان على المرء أن يحسن تفهم هذا الوسواس الذى نسميه « إجبار التكرار » الذى يظهر خلال العلاج التحليلي للمرضى ، مستبداً بهم ويدفع المريض إلى إعادة الماضى والحياة فيه مرة أخرى كما لو كان جزءاً من الحاضر ، وجب أولاً أن نتخلص تماماً من تلك الفكرة الخاطئة التى تزعم بأن ألوان المقاومة التى ينبغى علينا الانتصار عليها إنما تصدر عن اللاشعور . ذلك لأن اللاشعور ، أى الأمور المكبوتة ، لا تبدى أى مقاومة ضد محاولات العلاج ، بل هى فى الواقع لا تهدف إلا إلى التخلص من الضغط الذى يثقل عليها وإلى شق طريقها إلى الشعور أو إلى التنفيذ بواسطة فعل حقيقى . فالمقاومة التى تظهر أثناء العلاج إنما تصدر عن المستويات والنظم العليا للحياة النفسية ، تلك المستويات التى قامت هى من قبل بعملية الكبت . غير أنه لما كانت دوافع المقاومة ، بل أشكال المقاومة نفسها ، تكون أول الأمر خلال العلاج أموراً لا شعورية ، كان من اللازم أن نصلح بعض العبارات التى نستخدمها . فما يمنع الغموض وينفى اللبس ألا نقابل بين الشعور واللاشعور بل بين الأنا المتناسق والعناصر المكبوتة . فلا شك أن جانباً كبيراً من عناصر الأنا يختنى فى اللاشعور ، وذلك الجانب هو نواة الأنا وصميمه ، تلك العناصر التى لا يدخل منها إلى ما قبل الشعور سوى النذر اليسير . فإذا نحن استخدمنا على هذا المنوال عبارات ديناميكية أو منظمية بدلاً من العبارات الوصفية ، أمكن أن

نقول إن مقاومة الشخص أثناء التحليل إنما تصدر عن ذاته ، وهكذا يتضح لنا تَوَّاً أن إجبار التكرار لا بد أن يكون نتيجة ما هو مكبوت في اللاشعور . ومن المحتمل أن هذه النزعة الموجبة للتكرار لا تظهر أو تنشط إلا بعد أن يكون العلاج التحليلي قد أفلح في فك أغلال الأمور المكبوتة ^(١) .

وليس هناك من شك في أن المقاومة التي تصدر عن الأنا الشعوري والأنا اللاشعوري إنما تعمل وفقاً لمبدأ اللذة ؛ فهي تسعى إلى تجنب عدم اللذة الذي قد يتأتى نتيجة تحرير الأمور المكبوتة . غير أن جهودنا ، من الناحية الأخرى ، تهدف إلى تمكين المريض من احتمال ذلك « الألم » بالالتجاء إلى مبدأ الواقع . لكن ما هي الصلة بين إجبار التكرار ، وهو مظهر لقدرة المكبوت ، وبين مبدأ اللذة ؟ من الواضح أن الجانب الأكبر مما تعود الخبرة به تحت ضغط إجبار التكرار لا بد أن يسبب للأنا « ألماً » ، ذلك لأنه يكشف عن نشاط الدوافع الغريزية المكبوتة . لكن هذا ، برغم ذلك ، إنما هو نوع من « الألم » الذي عرضنا له من قبل ، وهو لا يتعارض ومبدأ اللذة ؛ ذلك لأنه عدم للذة يشعر به أحد الأنظمة (الأنا) ، بينما هو يجلب في عين الوقت لذة وممتعة لنظام آخر (الهو) . على أننا نصل بذلك إلى حقيقة جديدة تسترعى النظر ، ألا وهي أن إجبار التكرار يسترجع من خبرات الماضي ما لا يمكن أن يتضمن أية لذة ، وما لا يمكن ألبته ، حتى في الماضي السحيق ، أن يكون قد أدى إلى أي إشباع حتى للدوافع الغريزية التي أخفاها الكبت منذ ذلك الحين .

[(١) هامش أضيف في طبعة ١٩٢٣ : لقد ذهبت في مكان آخر (يشير إلى مقالة « ملاحظات عن تفسير الأحلام من النواحي النظرية والعملية » المنشور بالألمانية ١٩٢٣ ، وبالإنجليزية ١٩٥٠ في مجموعة المقالات ، إلى أن ما يبين إجبار التكرار هو عامل « الإيحاء » في العلاج — أي خضوع المريض للطبيب ، الذي تمتد جذوره عميقة إلى العقدة الأبوية اللاشعورية] .

إذا ما تفتحت الحياة الجنسية للطفل ذلك التفتح المبكر كتب عليها أن تنقضى أيامها سريعاً . ذلك لأن الرغبات التي تصدر عنها لا تتفق مع الواقع ، ولا تناسب مرحلة النمو المنقوصة التي يكون الصغير قد وصل إليها . ويقضى هذا التفتح نحيبه في أشد الظروف مدعاة للأسى ويلازمه من المشاعر ما يثقل على النفس كمدأ وإيلاماً . فإن فقدان الحب والحيية في الحصول عليه تخلف وراءها إصابة دائمة لاحترام الذات ، تبقى كالندوب في نرجسية الإنسان وهي ندوب أعرف من خبرتي ، التي توافق ما ذكره مارشينوفسكى (١٩١٨) ، أنها هي العامل الأكبر في « مشاعر القصور » التي تشيع بين المصابين بالأمراض النفسية . ذلك لأن المشاعر والرغبات الجنسية ، التي يضع دونها نمو الطفل البدني حدوداً لا تتخطاها ، لا تؤدي إلى أية نتيجة مرضية ؛ ومن يتردد عويله وتنشأ الشكاوى التي نسمعها منه فيما بعد مثل : « إني لعاجز عن القيام بأى أمر ؛ ولا أستطيع أن أفصح في شيء » . فوثاق المحبة وعروتها ، التي تربط الطفل — عادة — بوالده من الجنس الآخر ، يعترها الوهن ويخيب أملها في الإشباع أو تعترها الغيرة من ولادة طفل جديد ، مما يكون دلالة قاطعة على خيانة الوالد أو الوالدة التي يتعلق بها الطفل . فإن هو حاول بنفسه أن ينجب طفلاً ، وأخذ هذه المحاولة بكل ما يلزم لها من جد الصغار وتوفرهم على الأمر إذا ما رغبوا فيه ، لم يجن من هذه المحاولة سوى الحيبة المخزية المحتومة . هذا إلى أن تناقص المحبة التي كان يلقاها ، وقوارص الكلام أو ألوان العقاب التي قد تنزل به في سبيل تربيته ، إنما تبين له بياناً لا شك فيه إلى أى حد انحدرت مرتبته لدى ذويه . تلك هي بعض الأحوال التي يتكرر حدوثها وهي تمثل الأساليب المألوفة التي ينهى وفقاً لها عهد المحبة الذي ينعم به الأطفال في أوائل العمر .

وإذا كان المصابون بالأمراض النفسية بسبيل العلاج بالتحليل النفسى ، أخذوا يكررون أثناء « التحويل » كافة هذه المواقف الكريهة وتلك الانفعالات المؤلمة ويعيدونها إلى الحياة فى مهارة فائقة . فهم يعملون على قطع العلاج قبل اكتماله ؛ وهم يعملون على تدبير المواقف التى تبعث فيهم الشعور بالضيق والمذلة ، وهم يحاولون إرغام الطبيب على أن يوجه إليهم قوارص الكلام وأن يسئ معاملتهم ؛ وهم يكشفون من الأمور ما يستثير فيهم الغيرة ؛ وهم بدلا من الوليد الذى كانوا يتحرقون شوقاً إلى إنجابه أيام كانوا أطفالاً صغاراً يرسمون خطة أو يتخيلون وعداً بالحصول على هدية سنوية - يتبين لنا أبدأ أنها لا تقل فى التوهم عما كانوا يتوهمون فى الصغر . وليس فى هذه الأمور جميعاً ما يمكن أن يكون قد أدى إلى اللذة أو المتعة فى الماضى ؛ ولقد نجحنا إلينا أنها قد تكون أقل إيلاماً فى الحاضر لو أنها انبثقت كذكرىات أو أحلام بدلا من ورودها فى صورة خبرات جديدة مستقلة عن الماضى . ولا شك فى أن تلك الأمور كافة إنما هى أشكال من النشاط الغريزى الذى يقصد به أن يؤدى إلى الرضا والإشباع ، لكن صاحبها لم يتفجع بدروس الماضى الذى لم تؤد الخبرة فيه إلا إلى عدم اللذة . ورغم هذا فإنها تعود وتكرر تحت ضغط الإكبار .

إن ما يكشف عنه التحليل النفسى خلال ظاهرات التحويل أثناء علاج المصابين بالأمراض النفسية يمكن أن يشاهد أيضاً فى حياة غيرهم من الأسوياء . فهناك من الناس من يلوح كأن فى أعقابهم حظاً عاثراً أو كأن هناك قضاء غاشماً يقف دون خطاهم ؛ لكن التحليل النفسى قد اهتدى منذ عهد بعيد إلى أن القدر الذى يشكون منه ، وإلى أن مجرى حياة الواحد منهم - فى الجانب الأكبر منه - لم ترسمه الأحداث الخارجية بقدر ما رسموه هم لأنفسهم :

إذ فرضته أهواء الطفولة المبكرة ومؤثراتها وحتمته ظروف الماضي لا الظروف التي تقابلهم في الحاضر . والإجبار الذي يطغى على حياة هؤلاء الناس لا يختلف - على أى وجه من الوجوه - عن إجبار التكرار الذي يسيطر على حياة المرضى بنفوسهم ، رغم أن أولئك الأشخاص الأسوياء الذين أشرنا إليهم لا تبدو عليهم ألبنة أية علامات تدل على أنهم يعانون صراعاً عصائياً يؤدي إلى ظهور أعراض المرض . ومن هذا أنا نلقى كثيراً من الأشخاص تنهى كافة علاقاتهم بالناس إلى مآل واحد، وتؤدي بهم أبداً إلى نفس المصير : منهم ذلك الجواد المحسن الذي يبجحد إحسانه على الدوام من أحسن إليهم ويولون عنه غاضبين (حتى لكأن « اتق شر من أحسنت إليه » قد وضعت من أجله هو) وهم جميعاً يتفقون في هذا على ما بين شخصياتهم من تباين واختلاف ، ويلوح كأنه قد كتب على صاحبنا أن يتذوق أبداً نكران الحميل وعلم الجحود ؛ ومنهم من تنهى به أية صداقة إلى أن يخونه لا صديق واحد بل كافة من يصادق واحداً بعد الآخر ؛ أو منهم من يرفع ، المرة بعد المرة خلال حياته ، شخصاً إلى أرفع مركز أو أسمى مكانة في الحياة الخاصة أو العامة ولا تنقضي فترة إلا وقد قوض هو تلك المكانة ، وانتزع منها من رفع ، وأنزله بعد أن رفعه كي يضع بدلا منه شخصاً جديداً ؛ أو ، من هذا أيضاً ، ذلك العاشق الغزل الذي تأخذ كل غرامياته بالنساء نفس المجرى وتنهى به كل مرة إلى عين النهاية . هذا « الورود الدائم للأمر الواحد » لا يثير عند الباحث منا أية دهشة إذا ما نسبناه إلى السلوك الإيجابي الذي يقوم به الشخص ، وإذا ما استطعنا أن نتميز في شخصيته سمة أساسية باقية لا تتغير أبداً ، سمة يلزمها أن تظهر وأن تعبر عن نفسها بتكرار عين الخبرات التي مرت به من قبل . غير أن ما يثير فينا العجب أكثر من هذا بكثير هو الحالات التي يبدو فيها الشخص وكأن الخبرة قد وقعت به وهو سلبى لا حيلة له في ردها

ولا قدرة لديه في دفعها عن نفسه ، رغم أن نفس القدر يتكرر ويتزل به
المرّة بعد المرّة . نذكر من ذلك - على سبيل المثل - تلك السيدة التي تزوجت
ثلاث مرات ، وكان كل زوج من هؤلاء يقع فريسة للمرض بعد ذلك ،
وكان عليها أن تمرضه حتى توافيه المنية ^(١) .

ومن أروع الصور الشعرية التي ترسم هذا القدر الغريب ، ما
كتبه الشاعر « تاسو » في ملحمة الغنائية المعروفة « تحرير أورشليم » ؛
وفيها يقتل البطل « تانكريد » - دون فطنة منه - حبيبة قلبه « كلوريندا »
حين نازلته بعد أن تنكرت في درع فارس من فرسان الأعداء . وبعد أن
ووريت الثرى قادته خطاه إلى غابة سحرية عجيبة كانت تبعث الرعب في
نفوس رجال الجيش الصليبي ، حيث امتشق حسامه وهوى به على إحدى
الأشجار الطويلة السامقة ، فإذا الدماء تتدفق من حيث شق الشجرة ، وإذا
صوت « كلوريندا » حبيته ، التي كانت روحها قد التجأت إلى هذه الشجرة ،
يصيح به متوجعاً معاتباً إياه على أن أنزل بمعبودة فؤاده مرة ثانية مثل ما أنزل
بها من قبل .

فلو أنا رأينا إلى مثل تلك المشاهدات ، التي تقوم على سلوك المرضى
أثناء التحويل ، وإلى تلك التي تقوم على دراسة حياة العاديين والأسوياء
من بني البشر ، لو أننا من الإقدام ما يخول لنا أن نفرض أنه يوجد بالنفس
حقاً « إجبار على التكرار » ، يلزمها بإعادة الأمر الواحد مرة بعد مرة وأن هذا الإجبار

[(١) انظر في هذا الموضوع الملاحظات القيمة التي ذكرها كارل يونج (١٩٠٩) في فصل
« أهمية الولد في أقدار الولد » في كتاب مجموعة مقالات عن علم النفس التحليلي ص ١٥٦ من الترجمة
الترجمة الإنجليزية ١٩١٦] .

أمر يعلو مبدأ اللذة ويفوقه قوة وسطوة . وإذا نحن سلمنا بهذا استطعنا أن ننسب إلى هذا الإجبار أحلام المصابين بعصاب الصدمة وأن نفسر على ضوءه محبة التكرار التي تلازم لعب الأطفال . على أنه ينبغي أن نلاحظ أنه من النادر أن نشاهد مظاهر إجبار التكرار في شكل خالص نقي ، دون أن يختلط به وتتعاون وإياه بعض الدوافع الأخرى . ولقد ألمعنا من قبل فيما يتصل بلعب الأطفال إلى مختلف التفسيرات التي يمكن أن نفهم على ضوءها نشوء الإجبار ، ذلك لأنه يلوح أن إجبار التكرار يرتبط في لعب الأطفال ارتباطاً وثيقاً بالإشباع العاجل لأحد الدوافع النظرية ذلك الإشباع الذي يؤدي إلى المتعة والرضا . ومن الواضح أن المقاومة التي تصدر عن « الأنا » ، في سبيل استمساكه الشديد بالكبت ، تسرف في استغلال ظاهرات التحويل ؛ حتى لكأن إجبار التكرار ، الذي يحاول العلاج التحليلي أن ينتفع به ، قد وقع في حبال الأنا الذي يتعلق تعلقاً شديداً بمبدأ اللذة .

وعلى هذا المنوال يمكن أن نرى أن جانباً كبيراً مما يمكن أن يسمى « بإجبار الأقدار » - الذي أسلفنا بذكر بعض الأمثلة له - إنما هو أمر يتيسر فهمة وتفسيره على ضوء العقل تفسيراً يغنينا عن التماس أي دافع غيبي مجهول نستخدمه لفهم تلك لأقدار . ولعل أقل هذه الأحوال مدعاة للتشكك هي أحلام الصدمة ؛ غير أنا لو أعملنا الفكر لوجدنا أنفسنا وقد ألزمنا الحجة بأنه حتى في الأحوال الأخرى لا يمكن أن نكتفي بتفسيرها على ضوء الدوافع المألوفة ، إذ يبقى بعد ذلك من الجوانب الخفية ما يبرر الفرض ، الذي ذهبنا إليه ، بوجود إجبار على التكرار . وهو أمر بدائي أولى يبدو أكثر عراقية في البدائية وأكثر تغلغلا في الفطرة من مبدأ اللذة ، حتى لينتحي هذا جانباً كي يحل إجبار التكرار محله . على أنه إذا كان بالنفس حقاً إجبار

على التكرار ، فما أشد شوقنا إلى بعض المعرفة عنه ، وإلى الوقوف على الوظائف التي تتصل به ، وإلى تفهم الظروف التي ينبثق فيها ، والإلمام بالعلاقة بينه وبين مبدأ اللذة – هذا المبدأ الذي كنا حتى الآن ننسب إليه السيطرة على مسير عمليات الاستشارة في الحياة النفسية .

الفصل الرابع

إن ما سوف يتلو هذا إنما هو لون من النظر والتأمل ، قد يبدو مسرفاً بعيد الصلة عن الواقع ، يعترف به المرء أو يستخف به وفقاً للمنحى الذى ينحوه . ومهما يكن من أمر فإنه يمكن اعتبار ما سوف نقول به على أنه محاولة لتتبع فكرة من الأفكار ، كما نرى إلى مـّ يؤدى بنا هذا الشوق إلى إدراك المجهول .

يقوم النظر فى التحليل النفسى على حقيقة وقفنا عليها خلال البحث فى العمليات اللاشعورية ، ألا وهى أن الشعور لا يمكن أن يكون أعم خصائص العمليات النفسية ، بل إنه لا يعدو أن يكون وظيفة خاصة لهذه العمليات . فإذا استخدمنا المصطلحات الميتاسيكولوجية التى تواضع عليها التحليل النفسى ، قلنا إن الشعور وظيفة خاصة لمنظمة معينة يمكن أن نشير إليها بالحرف س^(١) . ولما كان أهم ما يزودنا به الشعور هو إدراك المثيرات التى تتأتى من العالم الخارجى ، وأحاسيس اللذة أو (عدم اللذة) التى لا يمكن أن تتأتى إلا من داخل الجهاز النفسى ، حق لنا أن نفرض لمنظمة سـ (٢) و

[(١) انظر الفصل السابع قسم «و» من كتاب سيجمند فرويد « تفسير الأحلام » (١٩٠٠) ومقاله عن « اللاشعورية » (١٩١٥) فى الجزء الرابع عن مجموعة المقالات ، الطبعة الإنجليزية (١٩٢٥)] .

[(٢) كان أول وصف أورده فرويد لمنظمة الإدراك فى القسم « ب » من الفصل السابع

(= الشعور الإدراكي) وضعاً في المكان . ولا بد أن توجد هذه المنظمة على الحدود التي تفصل الخارج عن الداخل . كما أنه لا بد أن تواجه العالم الخارجي ، ولا بد أن تنطوي على كافة المنظمات النفسية الأخرى . غير أننا سرعان ما نرى أن كافة التعريفات والفروض ليست بالأمر الجديد ، وأننا إذ نقول بها إنما نردد ما يقول به تشريح المخ ، ونتفق مع تعاليمه التي تذهب إلى أن (مركز) الشعور يقع في لحاء المخ ، أي في القشرة الخارجية التي تغلف العضو المركزي . على أن تشريح المخ لا يرى ما يدعو إلى التساؤل — من الناحية التشريحية — عن العلة في وجود الشعور على سطح المخ ، بدلا من وجوده في مكان آخر منه : كأن يكون مستقرًا آمناً في أعماق طبقاته وأبعدها عن السطح . غير أن التوفيق قد يواتينا نحن إذا اهتدينا إلى تفسير العلة في وجود منظمة الشعور والإدراك حيث توجد .

ليس الشعور هو السمة الخاصة الوحيدة التي ننسبها إلى العمليات التي تجري في هذه المنظمة . فقد هدتنا المشاهدات التي أتاحها لنا الخبرة بالتحليل النفسي إلى القول بأن كل عمليات الاستثارة التي تقع في المنظمات الأخرى تخلّف وراءها آثاراً باقية تكون أساساً تقوم عليه الذاكرة . وليس لمثل هذه البقايا في الذاكرة أية صلة بالشعور ، بل إن هذه البقايا كثيراً ما تبلغ غايتها من القوة والدوام إذا كانت العملية التي خلفتها وراءها عملية لم تصل ألبتة إلى الشعور . ومن العسير علينا أن نسلم — رغم ذلك — أن ما يبقى من الآثار في منظمة الشعور والإدراك يصل في القوة والدوام إلى ما تصل إليه تلك الآثار التي أسلفنا الإشارة إليها . ذلك لأن آثار الاستثارة إذا بقيت دواماً في الشعور

= من « تفسير الأحلام » . وقد بين في مقال تال بعنوان «إضافة متياسكيولوجية إلى نظرية الأحلام» ، (١٩٠٦) أن منظمة الإدراك تتطابق ومنظمة الشعور [.

فسرعان ما يؤدي ذلك إلى الحد من قدرة هذه المنظمة على استقبال الاستشارات الجديدة^(١). أما إذا كانت هذه الآثار لاشعورية فلسوف تواجهنا ، من الناحية الأخرى ، مشكلة لتفسير وجود عمليات لاشعورية في منظمة كان قيامها بوظيفتها ، خلاف ذلك ، مصاحباً على الدوام لظاهرة الشعور . حتى لكأننا لم نفسر شيئاً ، ولم نكتسب شيئاً حين وضعنا الفرض القائل بأنه لابد من منظمة خاصة وظيفتها الشعور . ورغم أن هذه الحجة ليست شديدة الحسم ، إلا أنها تؤدي بنا إلى الظن بأن الوجود في الشعور ، وأن ترك بعض البقايا في الذاكرة عمليات لا يتفق حدوثها جنباً إلى جنب في نفس المنظمة الواحدة . ومن ثم يمكن القول بأنه فيما يختص بمنظمة الشعور تكون عملية الاستشارة أمراً شعورياً ، لكنها لا تخلف وراءها هناك أية آثار باقية ، أما كافة آثار هذه العملية التي يمكن أن تصير أساساً للتذكر بعد ذلك فإنها تنأى من انتقال الاستشارة إلى المنظمات الداخلية . ولقد أخذت بنفس الرأي في الصورة التقريبية التي ضمنتها في القسم النظري من كتابي عن « تفسير الأحلام » . وينبغي أن نشير إلى أن كافة المصادر والنظريات الأخرى لا تكاد تهدينا إلى أي تفسير لمنشأ الشعور ؛ فإذا نحنا ذهبنا ، إذآ ، إلى القول بأن الشعور ينشأ حيث لا توجد بقايا للتذكر ، كان رأينا هذا جديراً بالنظر إذ هو يتميز ، على الأقل ، بأنه تفسير معين محدود المعالم .

فإذا كان هذا هو الحال ، فإن منظمة الشعور تتميز بخاصة معينة ، لاتشاركها فيها أية منظمة نفسية أخرى ، ألا وهي أن عمليات الاستشارة لا تخلف وراءها أي تغيير مقيم في عناصر تلك المنظمة ، حتى يمكن القول

[(١) إن ما سوف يلي يعتمد في أساسه على آراء بروير في القسم النظري من كتاب « دراسات في الهستيريا » (تأليف بروير وفرويد سنة ١٨٩٥)] .

بأنها تتلشى بظهورها في الشعور . فإذا كان هناك استثناء لهذه القاعدة العامة ، كان من اللازم تفسيره على ضوء أحد العوامل التي تؤثر في هذه المنظمة وحدها . ويمكن أن يكون هذا العامل ، الذي لا يوجد في المنظمات الأخرى ، هو تعرض منظمة الشعور تعرضاً شديداً للعالم الخارجي واتصالها به اتصالاً مباشراً .

فلنتصور الكائن الحي في أبسط أشكاله الممكنة ، حويصلة (بروتوبلازمية) لم تتميز من مادة يمكن استثارتهما . في هذه الحبال يتميز السطح الذي يواجه العالم الخارجي نتيجة لوجوده في هذا المكان ، ويصبح عنصراً وظيفته استقبال المثيرات . والواقع أن علم الأجنة ، باعتباره علماً يستعيد تاريخ النشوء والتطور ، ليثبت لنا حقاً أن الجهاز العصبي المركزي ينشأ من البشرة الخارجية ؛ وأن المادة السنجابية في لحاء المخ تستمد منه الطبقة السطحية الأولية للكائن الحي ، ويمكن أن تكون قد ورثت بعض الخصائص الأساسية لهذه الطبقة . ومن ثم كان من اليسير أن نتصور أنه نتيجة للفعل المتواصل للمثيرات الخارجية على سطح الحويصلة ، فإن جانباً من مادتها يتحول تحولا باقياً يؤدي إلى أن عمليات الاستثارة تجري فيه على منوال يختلف عما تجري عليه في الطبقات العميقة من البروتوبلازم . وهكذا تتكون قشرة قد أنضجتها المثيرات إنضاجاً شديداً حتى ليصبح لها من الخصائص ما يهيئها خيرة تهيئة لاستقبال المثيرات ، وحتى ليصبح من المحال أن تتغير أي تغير أو تتعدل على أي وجه . فإذا طبقنا هذا على منظمة الشعور ، كان هذا يعني أن عناصره لا يمكن أن يلحقها أي تعديل ثابت نتيجة لمرور الاستثارة ، ذلك لأن تلك العناصر تكون قد تعدلت من هذه الناحية إلى أقصى حد مستطاع ؛ على أنها تكون ، رغم ذلك ، قد اكتسبت القدرة على بعث الشعور . ويخطر لي في هذا الصدد بعض الأفكار ، التي لا يمكن التحقق منها في الوقت

الحاضر ، فيما يختص بطبيعة هذا التعديل وطبيعة عملية الاستثارة . من هذا أنه يمكن أن نذهب إلى أن المثير ، عند مروره من عنصر إلى آخر ، لابد أن يتغلب على بعض المقاومة ؛ وأن نقص المقاومة الذى يقع - نتيجة لذلك - هو الذى يترك أثراً باقياً للمثير أى يترك مسلكاً أو ممراً . ومن ثم ، لا يوجد بالشعور مقاومة من هذا النوع الذى يقف دون مرور المثير من عضو إلى آخر . ويمكن على هذا المنوال أن نربط بين هذه الصورة التى نقترحها ، وبين تمييز بروير فى عناصر منظمات النفس بين الشحنة الرابضة الكامنة (أو المقيدة) وبين الشحنة المتحركة الطليقة ؛ ووفقاً لهذا لا يكون بمنظمة الشعور أية طاقة أو شحنة مقيدة ، بل طاقة قادرة على الانصراف والتنقل الحر الطليق . ورغم هذا ، فإنه يبدو أنه من الخير أن نتوخى الحرص والحذر فى الجزم بما يتصل بهذه الأمور ، وخاصة أن العلم لا يهديننا إلى أكثر من ذلك فى مرحلته الحاضرة . ومهما يكن من أمر ، فلقد أفدنا من هذا التفكير المجرد أن أمكننا إثبات نوع من العلاقة بين منشأ الشعور من ناحية وبين مركز الشعور والخصائص التى لابد من نسبتها إلى عمليات الاستثارة التى تجرى فيه من ناحية أخرى .

على أنه لا يزال لدينا جانب آخر من الحديث عن الحويصلة الحية (خلية البروتوبلازم) وعن لحائها الخارجى المستقل . يوجد هذا الجسم الدقيق من المادة الحية معلقاً بين ثنايا عالم خارجى مفعم بأشد أنواع الطاقة بأساً وقوة ؛ ولو أنه لم يوجد لهذا الجسم درع يقيه لقتلته المثيرات التى تندفق عليه من ذلك العالم الخارجى . وتكتسب تلك الحويصلة الحية درعها الواقى على هذا المنوال : يكف سطحها الخارجى عن أن يكون له ذلك التكوين الخاص بالمادة الحية ، ويصبح إلى حد ما شبيهاً بالمادة الجامدة فيستطيع

بذلك أن يعمل كغلاف خاص أو عضو للوقاية يقف دون المثيرات الخارجية . ومن ثم تستطيع ألوان الطاقة التي تصدر عن العالم الخارجى أن تمر إلى الطبقات التي احتفظت بالحياة — تلك الطبقات التي تلى الطبقة الخارجية — وهي لا تحمل سوى جانب من شدتها الأصلية ؛ وتفرغ هذه الطبقات الداخلية ، وقد احتمت بذلك الدرع ، لاستقبال مقادير الاستثارة التي يؤذن لها بالوصول إليها . وعلى هذا تكون تضحية الطبقة الخارجية بحياتها قد أنقذت الطبقات العميقة من مثل هذا المصير — إلا إذا بلغت المثيرات من القوة حداً تستطيع معه أن تخترق ذلك الدرع الواقي . والحق أن الوقاية من المثيرات وظيفة تكاد أن تكون أكثر أهمية وأكبر خطراً لبقاء الكائن الحي من استقبال المثيرات . ويختزن الدرع الواقي طاقته الخاصة ، وينبغى عليه أن يعمل على أن يكون تحول الطاقة فيه ، مهما اتخذت من أشكال ، كفيلاً بأن يقف في وجه ما قد يدهمه من أفعال القوى الطاغية والطاقة الهائلة التي يزخر بها العالم الخارجى — تلك الأفعال التي تهدف إلى تعادل القوى ومن ثم إلى الفناء والسكون .

إن أهم غاية من استقبال المثيرات هي الكشف عن اتجاه القوى الخارجية وطبيعتها ، ويكفى لهذا الغرض أن تؤخذ أقساط صغيرة من العالم الخارجى ، وأن تنتقى منه أصغر المقادير . وفي الكائنات الحية العليا ، تلك التي قطعت شوطاً بعيداً في سبيل التطور ، نجد أن اللحاء الخارجى المستقبل لدى الحويصلة الحية التي أسلفنا الحديث عنها قد انسحب منذ عهد بعيد إلى أعماق البدن الداخلية ، رغم أن بعض أجزائه قد بقيت على سطح الجسم مباشرة تحت الدرع العام الذي يحمي الكائن من المثيرات الخارجية . وهذه هي أعضاء الحس ، التي تتكون في صميمها من أجهزة لاستقبال أنواع معينة من المؤثرات التي تفد إلى البدن ، لكنها تحوى أيضاً على نظم أخرى

للقااية من المقادير الشديدة من الاستشارة ولاستبعاد الأنواع التي لا تصلح منها . ومن خصائص أعضاء الحس أنها لا تتناول سوى كميات ضئيلة من الاستشارة الخارجية ، ولا تأخذ من العالم الخارجي سوى « عينات » صغيرة ، حتى ليتمكن تشبيهها « بالمحسّات » في الحيوانات الدنيا [كشوارب السمك مثلاً] التي تسعى أبداً للاقتراب من العالم الخارجي وتعمل على تلمسه ، ثم تراجع عنه وتعمل على الابتعاد .

فإذا ما وصلنا إلى هذا فسوف أحاول أن أعالج إلى حدما أحد الموضوعات التي تستأهل دراسة شافية دقيقة . فإن بعض الكشوف التي اهتدينا إليها في التحليل النفسي ، تخول لنا اليوم أن نعرض المناقشة لنظرية « كانط »^(١) التي تقول إن الزمان والمكان « أشكال ضرورية للفكر » . إذ نعرف أن العمليات النفسية اللاشعورية عمليات ، في صميمها ، تخرج على الزمان ، أي لا صلة لها به على الإطلاق . ويعني هذا أولاً ، أنها ليست مرتبة ترتيباً زمنياً ، وأن مرور الزمن لا يغير منها أو يبدل فيها أي تغيير أو تبديل ، وأن فكرة الزمن منقطعة الصلة بها لا يمكن تطبيقها عليها . وهذه كلها خصائص سلبية لا يمكن تفهمها في وضوح إلا إذا أخذنا في المقارنة بينها وبين العمليات النفسية الشعورية . هذا إلى أنه يلوح أن فكرة الزمان

(١) كانط Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤) . لعله أكبر فلاسفة الألمان قاطبة . ويشير فرويد هنا إلى ما ذهب إليه كانط من أن المعرفة الانسانية تعتمد على الحس والتجربة . لكن الحواس لا تنقل إلى العقل سوى صور مختلفة مهوشة لا بد من ترتيبها وتنظيمها ، وهذا هو ما يقوم به العقل مستعيناً بمبدأين أوليين هما المكان والزمان . والزمان صورة أولية في العقل ترجع إلى قوة الحساسية الباطنة بصفة مباشرة ، وإلى قوة الحساسية الظاهرة بصفة غير مباشرة ، ذلك لأن كل إحساس حدث نفسي له موضعه من الزمان ، والظواهر والأحوال النفسية لا وجود لها إلا في الزمان . وقد أقام كانط فلسفة سيطرت على التفكير الأوروبي خلال القرن التاسع عشر إلى حد كبير .
(المترجم)

المجردة عن الإنسان ، من الناحية الأخرى ، تستمد بأكملها من الطريقة التي تعمل وفقها منظمة الشعور والإدراك ، وتتأتى من إدراك هذه المنظمة وتفطنها لما يجرى فيها وكيف يجرى . ولقد يكون عمل هذه المنظمة وفق ذلك المنوال مما يهيئ درعاً آخر يقيه من المثيرات الخارجية . والحق أنى لأدرك أن هذه الآراء لابد أن تبدو غامضة مسرفة في التعقيد ، غير أنه يتحتم علىّ في الوقت الحاضر أن أقنصر على تلك التلميحات التي أملت إليها ^(١) .

لقد بينا كيف أن للحويصلة الحية درعاً يعمل على حمايتها من المثيرات التي تفد من العالم الخارجى ؛ كما كنا قد أسلفنا أن الطبقة التي تلى هذا الدرع من الداخل لابد أن تتميز كي تصبح عضواً لاستقبال المثيرات الخارجية . على أن هذه الطبقة الحساسة التي تصبح ، بعد ذلك ، منظمة الشعور تستقبل إلى جانب ذلك مثيرات من الداخل . فيكون لوجود هذه المنظمة بين الخارج والداخل ، وللفرق بين الشروط التي تجرى وفق استقبال المثيرات في كل من الحالتين ، أثر حاسم على عمل تلك المنظمة وعلى عمل الجهاز النفسى بأكمله . إذ أن لهذا الجهاز من الخارج درعاً يقيه من المثيرات ، فلا يكون لمقادير الاستثارة التي تطغى عليه سوى تأثير منقوص ؛ بينما ليس له مثل هذا الدرع من الداخل ؛ بل إن المثيرات التي تصعد من الطبقات العميقة تنفذ إلى تلك المنظمة نفاذاً مباشراً دون أن تنقص شدتها ، وذلك فيما يتصل بخصائص تلك المثيرات التي تؤدي إلى مشاعر اللذة وعدم اللذة ، بيد أن المثيرات التي تفد من الداخل — فى شدتها ، وفى بعض النواحي الكيفية الأخرى ، وقد يكون هذا فى مداها — تتواءم مع طريقة عمل هذه

[(١) شرح فرويد هذه النقطة شرحاً تفصيلياً بعد ذلك فى مقال بعنوان «الورقة السحرية»

المنظمة أكثر من المثيرات التي تتدفق من العالم الخارجى . ويترتب على هذا نتيجتان لازمتان : الأولى هي أن مشاعر اللذة وعدم اللذة (وهى الدلالة التى تشير إلى ما يجرى فى داخل الجهاز) تطفئ على كافة المثيرات الخارجية . والثانية أن الكائن الحى يتخذ أسلوباً خاصاً فى التصرف بإزاء المثيرات الداخلية إذا أدت إلى زيادة كبيرة فى عدم اللذة : بأن ينزع الكائن إلى تناول تلك المثيرات ، كما لو كانت غير وافدة من الداخل ، بل من الخارج ، حتى يصير من الممكن استخدام الدرع الواقى كوسيلة للدفاع فى وجه هذه المثيرات الداخلية . وهذا هو أصل « الإسقاط » (١) ، الذى يقيض له أن يلعب دوراً كبيراً فى تحليل عمليات النفس المرضية .

يخيل إلى أن هذه الاعتبارات الأخيرة قد يسرت علينا أن نفهم السر فى تفوق مبدأ اللذة ؛ غير أنها لم تلق بعد أى ضوء على الحالات التى تناقض هذا التفوق . فلنتقدم إذن خطوة أخرى . نحن نعرف أن « الصدمة » هى ما يتأتى من مثيرات العالم الخارجى التى تبلغ من القوة حداً يؤدى بها إلى اختراق الدرع الواقى . ويبدو لى أن الفكرة عن الصدمة لا بد أن تتضمن بالضرورة علاقتها بالصرع الذى لحق تلك الوسيلة من وسائل الدفاع التى بقيت ناجعة إلى أن وقعت الصدمة . مثل تلك الصدمة الخارجية حادث

(١) الإسقاط (Projection) عملية لاشعورية هى : وسيلة من الوسائل التى يلجأ إليها « الأنا » كى يتخلص من المشاعر والمثيرات التى تؤلم النفس بأن ينسب صدها إلى غيره من الناس أو الأشياء . وتلك ظاهرة كثيراً ما نشاهدها فى الحياة اليومية ، مثلها أن يثور بنفس أحد الناس ميل إلى العدوان فيتهم غيره بالشروع فيه . وعملية الإسقاط تلعب دوراً كبيراً فى بعض الأمراض النفسية ، وفى بعض الأمراض العقلية على الأخص ما هو معروف من هذيان الاضطهاد عند المصابين بمرض البارانويا ، وهو اضطهاد ليس له فى العالم الخارجى ما يبرره ، إنما يقوم أصلاً على ما تنطوى عليه نفس المريض من ميل إلى الأذى ورغبة فى العدوان ينسبها إلى غيره دون أن يفتن إلى وجودها فى أعماق نفسه . (المترجم) .

لابد أن يثير اضطراباً واسعاً في عمل الطاقة التي ينطوي عليها الكائن الحي ، وأن يحرك كافة أشكال الدفاع الممكنة ؛ ولا بد ، في عين الوقت ، أن يتعطل فعل مبدأ اللذة تعطلاً مؤقتاً ، فإذا الجهاز النفسى وقد غمرته مقادير ضخمة من المثيرات لا قبل له بمنعها ، وإذا هو يواجه مشكلة أخرى — هى مشكلة السيطرة على هذا الفيض من المؤثرات التي تدهمه والعمل على تقييدها ، بالمعنى النفسى ، حتى يمكن التخفيف منها بعد ذلك .

ومن المحتمل أن ما يلزم الألم البدنى من عدم اللذة هو نتيجة لتهدك الدرع الواقى فى منطقة محدودة . إذ يتبع هذا أن يتدفق تيار متواصل من المثيرات ، من خلال هذه الثغرة ، مباشرة إلى الجهاز النفسى المركزى ، وهذا أمر لا يقع عادة الا من داخل الجهاز وحده^(١) . فأى رد ينتظر أن تقوم به النفس على هذا الغزو ؟ تُستدعى كل أشكال الطاقة من كافة النواحي كى تهبط أكبر ما يمكن من الشحنة فيما يحيط بتلك الثغرة . وهكذا تقوم « شحنة مضادة » شديدة القوة ، تضعف فى سبيل تجمعها كافة المنظمات النفسية الأخرى ، ويترتب على هذا أن يتوقف ما عدا ذلك من الوظائف النفسية أو ينقص إلى حد كبير . فلنحاول أن نستخلص مغزى مثل هذه الأمثلة التي أشرنا إليها ، وأن نستخدمها كأساس لما نحن بسبيله من التأملات الميتاسيكولوجية . من تلك الحالة التي نحن بصدددها يمكن أن نستنتج إذن أن المنظمة المفعممة بالشحنة يمكن أن تستقبل قدرأ إضافيأ من الطاقة التي تقبل عليها وأن تحولها إلى شحنة رابضة كامنة ، أى أن « تقيدها » تقييدأ نفسياً . ويبدو أنه كلما زادت الشحنة الرابضة التي تحتويها المنظمة زادت قدرتها على التقييد ؛

[(١) انظر مقال فرويد (١٩١٥) عن « الفرائز وتقلباتها » . الجزء الرابع من مجموعة المقالات الطبية الإنجليزية ١٩٢٥] .

وعلى العكس من ذلك ، إذن ، كما نقصت شحنتها ، ضعفت قدرتها على تحمل الطاقة التي تقبل عليها وزاد عنف النتائج التي تترتب على اختراق الدرع الواقى ضد المثيرات . ولا يمكن الاعتراض على هذا الرأى بأنه من الأيسر أن نفسر زيادة الشحنة حول الثغرة بأنها نتيجة مباشرة لتدفق أكذاس المثيرات منها . ذلك لأنه لو كان هذا هو الحال ، لاقتصر الأمر على أن يظفر الجهاز النفسى بزيادة فى الشحنة ، ولما اهتمدنا إلى تفسير لما يؤدى إليه الألم من شلل أو توقف ، ومن إضعاف لكافة المنظمات الأخرى . ولا يعيب تفسيرنا هذا ما يؤدى إليه الألم من ظاهرات شديدة العنف تهدف إلى التخفف منه ، ذلك لأنها تقع على منوال انعكاسى - أى أنها تقع دون تدخل الجهاز النفسى . إن هذا الغموض والإبهام الذى تتسم به هذه الآراء - التى نطلق عليها اسم الآراء الميتاسيكولوجية - يرجع بالطبع إلى أننا لا نعرف شيئاً عن طبيعة عملية الاستثارة التى تقع فى عناصر المنظمات النفسية ، وإلى أننا لا نجد ما يبرر تكوين أى فرض علمى عن هذا الموضوع . ومن ثم كنا نستخدم على الدوام طرفاً مجهولاً ، كان لابد لنا من إدماجه فى كل دليل أو قضية جديدة . قد يكون هناك ما ينحول لنا أن نذهب إلى أن عملية الاستثارة يمكن أن تجرى إذا وجدت من ألوان الطاقة ما يختلف بعضه عن بعض من حيث الكم ؛ كما يبدو أيضاً أنه من المحتمل أن لعملية الاستثارة أكثر من كيف واحد (من ناحية المدى مثلاً) ، ولقد بحثنا فى رأى جديد هو الفرض الذى قال به « بروير » بأن للمنظمات النفسية أو عناصرها شكلين من الشحنة : شحنة حرة طليقة تعمل على الانصراف ، وشحنة رابضة كامنة . ومن هنا يمكن أن نذهب إلى أن « تقييد » الطاقة التى تتدفق على الجهاز النفسى يكون بتحويلها من الحالة الطليقة إلى الحالة الكامنة .



وينحى إلى أنه لا بأس من اعتبار عصاب الصدمة المؤلف نتيجة لثغرة كبيرة أصابت الدرع الواقى من المثيرات . ويبدو أن هذا القول يؤيد النظرية الساذجة القديمة عن الصدمة ، التى تناقض النظرية الحديثة وما بها من مزاعم سيكولوجية رنانة تنسب على المرض لا لآثار العنف الآلى بل للفرع الذى يلزمها ولخشية الإنسان على حياته . ورغم هذا فإن التوفيق بين هذين الرأيين المتناقضين ليس عسيراً ؛ وليس رأى التحليل النفسى فى عصاب الصدمة متفقاً على أى وجه من الوجوه بنظرية الصدمة فى شكلها الساذج . ذلك لأن رأى الأخير يذهب إلى أن صميم الصدمة هو الهدم المباشر لأنسجة الخلايا ، إن لم يكن للتكوين التشريحي الدقيق لعناصر الجهاز العصبى ، بينما نحن نعمل على تفهم ما يقع بالنفس إذا ما انكسر درعها الذى يقف فى وجه المثيرات وما يتبع ذلك من المشاكل والاضطرابات . على أننا نترك أيضاً ما لعنصر الفرع من أهمية . فهو ينشأ من عدم التأهب على أى وجه من الوجوه لمقابلة الجزع ، وما يؤدى إليه هذا من زيادة فى شحنة المنظمات التى تكون أول من يستقبل المثيرات . ذلك لأن ضعف شحنة هذه المنظمات لا يهبها لتقييد مقادير الاستثارة التى تقبل عليها ، ومن ثم ترتب على ذلك النتائج التى يؤدى إليها اختراق الدرع الخارجى الواقى . ومن هذا نرى ، إذاً ، أن التأهب لمقابلة الجزع وأن زيادة الشحنة فى المنظمات المستقبلية هو آخر خط من خطوط الدفاع التى تقوم فى وجه المثيرات الخارجية . وفى كثير من الصدمات يكون الفرق بين المنظمات التى لم تتأهب وتلك التى أحسنت التأهب بما زاد فى شحنتها عاملاً حاسماً فى تحديد ما ينتج عن الصدمة ؛ رغم أنه إذا زادت قوة الصدمة عن حد معين لم يكن لهذا العامل أثر هام . وتتحقق الرغبات والأمانى ، كما نعرف ، عن طريق (الهلوسة) والتوهم أثناء الأحلام ،

حتى صار هذا هو وظيفة الحلم تحت سيطرة مبدأ اللذة . لكنه ليس مما يخضع لذلك المبدأ أن أحلام المرضى الذين يصابون بعصاب الصدمة تعود بهم عوداً منتظماً إلى المواقف التي نزلت بهم فيها الصدمة من قبل . حتى يمكن أن نذهب إلى أن الأحلام في هذه الأحوال تقوم بمهمة أخرى ، لا بد من إتمامها حتى قبل أن يشرع مبدأ اللذة في فرض سيطرته وسيادته . ذلك لأن هذه الأحلام تعمل على الارتداد بصاحبها إلى حيث تستطيع التغلب على المثير بأن تبتعث الجزع الذي كان القضاء عليه هو السبب في وقوع عصاب الصدمة^(١) . وبهذا نهتدى بما قمنا به من دراسة عصاب الصدمة إلى وظيفة من وظائف الجهاز النفسى هى ، رغم أنها لا تتعارض ومبدأ اللذة ، مستقلة عنه ، ويبدو أنها أكثر تغلغلا في الفطرة من محاولة الحصول على اللذة والعمل على تجنب الألم .

إذا وصلنا إلى هذا ، لاح أنه ينبغى التسليم لأول مرة باستثناء للقول بأن الأحلام وظيفتها تحقيق الرغبات والشهوات . وليست أحلام الجزع ، كما كررت تبيانه بالتفصيل ، استثناء لهذه القاعدة . حالها في ذلك حال أحلام العقاب لأنها لا تفعل أكثر من إحلال العقاب المناسب محل الشهوات المحرمة ؛ أى أنها تحقق الرغبة في الشعور بالذنب وهذا هو رد الفعل الذى يعقب النزعات المنبوذة . غير أنه من المحال أن نعتبر أن أحلام المصابين بعصاب الصدمة التى أسلفنا الحديث عنها تهدف إلى تحقيق الرغبات والشهوات ، حذوها في ذلك حذو الأحلام التى تخطر للناس أثناء إجراء التحليل النفسى عليهم فتثير فيهم ذكريات الصدمات النفسية التى نزلت بهم أثناء الطفولة .

[(١) يقرر فرويد بهذا ضمناً أن حدوث الجزع هو السبيل لتكوين التأهب لمقابلة ما يفد بعد ذلك من ألوان الجزع الأخرى] .

بل الأرجح أن الأحلام هؤلاء وأولئك تطراً لهم استجابة لإجبار التكرار ، رغم أنه في حالة التحليل يستند هذا الإجبار إلى الرغبة في العثور ما على كُبت وعنى عليه النسيان . وهكذا يبدو لنا أن وظيفة الأحلام الأصلية ، التي تقوم على إبعاد الدوافع التي قد تقطع النوم ، ليست تحقيق الرغبات والشهوات التي تثير النزعات المزعجة . وذلك لأن الأحلام لا يمكن أن تقوم بهذه الوظيفة إلا إذا ارتضت الحياة النفسية بأجمعها ما لمبدأ اللذة من سيطرة . فإذا كان هناك ، « ما هو فوق مبدأ اللذة » ؛ كان من اللازم أن نسلم بأنه كانت هناك فترة قبل أن يكون هدف الأحلام هو تحقيق الرغبات والشهوات . ولا يتضمن هذا إنكاراً لوظيفتها الجديدة . لكنه إذا كان هناك شذوذ في هذه القاعدة العامة فإن هذا يكون مدعاة أخرى للتساؤل . ألا يمكن أن تكون هذه الأحلام خاضعة لإجبار التكرار حتى تستطيع أن تقوم بتقييد نتائج الصدمة وربطها ؟ ألا يمكن أن تطراً مثل هذه الأحلام خارج التحليل النفسي ؟ والجواب عن هذا التساؤل ، في كلا الحالين ، لا يمكن أن يكون بغير الإيجاب .

لقد ذهبت في كتاب آخر^(١) إلى أن عصاب الحرب ، (إذا استخدمنا هذا المصطلح كي يعنى شيئاً أكثر من مجرد الإشارة إلى الظروف التي وقع فيها المرض) ، يمكن أن تكون لوناً من عصاب الصدمة قد هيا السبيل له ما في الأنا من صراع . ويتضح ما أشرت إليه سلفاً (ص ١٠) ، من أن الإصابة البدنية الخطيرة التي تصاحب الصدمة تنقص من احتمال حدوث المرض النفسي . إذا ذكر القارئ حقيقتين أثبتتهما أبحاث التحليل النفسي :

[(١) كتاب «عصاب الحرب» - انظر الترجمة الإنجليزية لمقدمة هذا الكتاب ، منشورة في الجزء الخامس من مجموعة المقالات ١٩٥٠] .

الأولى منهما أن الاهتزازات الآلية لا بد أن تعتبر أحد مصادر الاستثارة الجنسية^(١) . والثانية أن الحميات والأمراض الموجعة تؤثر ، أثناء الإصابة بها ، أثراً كبيراً على توزيع الليبدو^(٢) . ومن ثم تؤدي الصدمة بما تسببه من عنف آلي ، من ناحية ، إلى إطلاق كمية من الاستثارة الجنسية ، يكون لها وقع الصدمة نظراً لعدم التأهب لمقاومة الجزع ؛ لكن الإصابة البدنية المصاحبة ، من الناحية الأخرى تقيد هذا الإفراط في الاستثارة بما تتطلبه من زيادة في الشحنة النرجسية للعضو المصاب^(٣) . ومن المعروف الواضح أيضاً ، رغم أن نظرية الليبدو لم تنتفع بهذا كما ينبغي الانتفاع ، أن الاضطرابات الخطيرة التي تقع في توزيع الليبدو مثل مرض الملائخوليا يمكن أن تختفي مؤقتاً إذا لحق صاحبها مرض بدني ، بل إن العته المبكر في أقصى درجاته قد تذهب أعراضه وتختفي اختفاء مؤقتاً في مثل هذه الظروف .

[(١) انظر ما أورده عن ذلك في كتاب آخر « الميول الجنسية » ١٩٠٥ . عن أثر الأرجحة والسفر بالسكك الحديدية . (ترجمة ١٩٤٩ الإنجليزية ص ٧٩)] .

(٢) الليبدو Libido هو الطاقة التي تصدر عن الغريزة الجنسية بأوسع معانيها .

(٣) انظر مقال فرويد عن « النرجسية - تمهيد » ١٩١٤ - المنشور بالإنجليزية في الجزء الثاني من مجموعة المقالات ١٩٢٥ .

والنرجسية Narcissism اصطلاح مشتق من الأسطورة الإغريقية عن « نرجس » الذي هام بنفسه فطال نظره إلى مياه البحيرة معجباً بجماله حتى حولته الآلهة إلى الزهرة المعروفة بهذا الاسم . ويقصد بها في التحليل النفسي تلك المرحلة التي تتميز بميل الطفل إلى اتخاذ ذاته موضوعاً لعشقه ؛ وهو ميل يشتد في الحالات المرضية وخاصة في الأمراض العقلية . (المترجم)

الفصل الخامس

إن ما يقرره الواقع من أن لحاء المخ الذى يستقبل المثيرات ليس له ما يحميه ضد الاستثارة التى تأتى إليه من الداخل لابد أن انتقل هذه المثيرات يطغى من حيث أهميته الاقتصادية ، وكثيراً ما يؤدي إلى الاضطرابات الاقتصادية التى تشبه الأمراض النفسية التى تعقب الصدمات . وأغزر الينابيع لهذه الاستثارة الداخلية هو ما يعرف باسم غرائز الكائن الحي ، التى تمثل كافة القوى التى تصدر من داخل الجسم وتنتقل إلى الجهاز النفسى ، تلك الغرائز التى تعتبر فى آن واحد أهم عنصر فى البحوث النفسية وأكثرها غموضاً .

وقد لا يعتبر من الإسراف أن نحيل إلينا أن الدوافع التى تصدر عن الغرائز لا تنتمى إلى طراز العمليات العصبية المربوطة بل إلى طراز العمليات الطليقة التى تتطلب النفاذ وتهدف إلى الانصراف . وخير ما نعرفه من جوانب هذه العمليات هو ما نستمدّه من دراستنا لوظيفة الأحلام ، فقد كشفنا هناك أن العمليات التى تجرى فى النظم اللاشعورية تختلف اختلافاً أساسياً عن تلك التى تجرى فى النظم الشعورية أو ما قبل الشعورية ، ذلك أنه يتيسر فى اللاشعور أن تنتقل الشحنة أو تستبدل أو تكسب بأكملها . على أن مثل هذه التغيرات إذا ما وقعت فى نطاق ما قبل الشعور لم تؤد إلا إلى نتائج شائبة منقوصة . ويفسر لنا هذا الخصائص المألوفة التى يتميز بها المضمون

الظاهر للأحلام بعد أن تكون البقايا ما قبل الشعورية لأحداث النهار السابق قد تشكلت وفق القوانين التي تسيطر على اللاشعور . ولقد أطلقت على العمليات التي تجري في اللاشعور اسم العمليات النفسية «الأولية» كي نفرق بينها وبين العمليات «الثانوية» التي تسود حياة الصحو السوية . ولما كانت كافة الدوافع الغريزية تعتمد في أساسها على النظم اللاشعورية فليس في القول بأنها تخضع للعملية الأولية أى شيء جديد ، هذا إلى أنه ليس من العسير من ناحية أخرى أن نرى أن العملية الأولية هي ما يدعوه «بروير» بالشحنة الطليقة المتنقلة وأن العملية الثانوية هي التغيرات التي تصاحب الشحنة المقيدة أو الثابتة^(١) . فإذا كان الأمر كذلك كان من الواجب على الطبقات العليا من الجهاز النفسى أن تضبط الاستثارة الغريزية التي تخضع للعمليات الأولية . فإذا هي فشلت في القيام بهذا الربط أدى ذلك إلى اضطراب يشبه المرض النفسى الذى يعقب الصدمة ، ولا يمكن ، إلا بعد أن يتم هذا التقييد ، أن تسود سيطرة مبدأ اللذة (ومبدأ الواقع الذى هو شكل معدل منه) . وإلى أن يتم ذلك يكون واجب الجهاز النفسى الآخر ، ألا وهو السيطرة على المثيرات أو تقييدها ، أهم الواجبات التي لا تتعارض على أى وجه من الوجوه ومبدأ اللذة ، بل هو مستقل عنه وغير محتفل به إلى حد ما .

وإن المظاهر التي تبدو في إجبار التكرار [الذى أسلفنا وصفه كما يجرى في الحياة النفسية للطفولة المبكرة، حذوه في ذلك حذو ما نراه يقع في العلاج بالتحليل النفسى] لتدل دلالة قوية على أنه أمر غريزى ، وعلى أنه لو تعارض ومبدأ اللذة لكان في هذا دلالة على أن هناك قوة أخرى تدفع إليه . ففي لعب الأطفال لاح لنا أنه يمكن أن نرى أن الأطفال يكررون الخبرات

[(١) انظر كتابي « تفسير الأحلام » (١٩٠٠) الفصل السابع] .

المؤلة لأنهم بهذا يستطيعون السيطرة عليها إذا كان الواحد منهم فاعلا ، أكثر من سيطرته عليها إن هو اقتصر على أن يكون منفعلا . ويبدو لنا أن كل تكرار جديد يقوى السيطرة التي يسعى الصغير نحوها . هذا إلى أن الأطفال لا يشبعون من تكرار خبراتهم اللذيذة ولا يتهاونون في إلحاحهم على وجوب تكرارها تكراراً دقيقاً . لكن هذه الخاصة تختفي بعد ذلك ، فإن النكتة إذا أعيد سماعها لا تكاد تخلف أثراً ، والقطعة المسرحية لا تترك وراءها في المرة الثانية مثل الأثر العميق الذي تركته في المرة الأولى ؛ ويكاد ألا يكون ممكناً أن تغرى شخصاً بالغاً استمتع كل المتعة بقراءة أحد الكتب أن يعيد قراءته توطاً بعد القراءة الأولى . ذلك لأن الجدة شرط لازم أبداً للاستمتاع ، غير أن الصغار لا يكتلون أبداً من سؤال الكبير أن يعيد لعبة كان قد أرشدهم إليها أو لعبها معهم وهم لا يتركونه وشأنه إلا إذا كان قد أنهكه الإعياء وعجز عن مواصلة اللعب . وإذا أنت كنت قد أخبرت طفلاً بحكاية لطيفة فإنه يصر على سماعها منك مرة بعد مرة ، مفضلاً إياها على أية حكاية جديدة ؛ ثم هو يشترط اشتراطاً لا هوادة فيه أن الإعادة لا بد أن تكون دقيقة مضبوطة ، فإذا اقترف الحاكى جريمة التغيير قام الصغير بإصلاح ما اقترفه الكبير — الذي قد يكون الدافع إلى اقترافه جريمة التغيير رغبة في الحصول على رضا الصغير . ولا شيء في هذا يناقض مبدأ اللذة ؛ فمن الواضح أن التكرار ، أى إعادة الخبرة بالشئ الواحد ، هو في نفسه مصدر للمتعة واللذة . لكن الحال مع الشخص أثناء إجراء التحليل ، يكون على النقيض من ذلك ، إذ أن الإكبار على إعادة الأحداث التي وقعت له أثناء الطفولة في التحويل^(١) أمر يخالف مبدأ اللذة على كل وجه من الوجوه .

(١) لاوقوف على إيضاح شاف لمعنى « التحويل » نرجو الرجوع إلى كتاب فرويد المتع ، « مقدمة في التحليل النفسى » ص ١١٢ - ١١٨ . دار المعارف ١٩٥٠ (المترجم) .

فالمريض أثناء التحليل يسلك سلوكاً طفلياً خالصاً، وهكذا يبين لنا أن الذكريات المكبوتة عن خبراته المبكرة لا توجد بنفسه في حالة مقيدة ، وأنها حقاً لا يمكن — من ناحية ما — أن تخضع لأسلوب العملية الثانوية . وبالإضافة إلى هذا فإن هذه الذكريات لما كانت غير مقيدة كانت لها القدرة — إذا ما اختلطت ببقايا اليوم السالف — على تكوين الأخيصة المرغوبة التي تظهر في الأحلام . وهذا الإجبار على التكرار كثيراً ما يكون عقبة في وجه العلاج بالتحليل ، إذا ما عملنا في نهاية العلاج على دفع المريض إلى الانقطاع تماماً عن الطبيب . ويمكن من هذا أن نذهب إلى أن خشية غير العارفين بالتحليل من الإقدام عليه — وهي خشية من أن يستيقظ في نفوسهم ما يظنون أنه من الخير أن يبقى نائماً — إنما تعود في صميمها إلى الخوف من ظهور هذا الإجبار على التكرار ، ذلك الإجبار الشديد الذي يرتاع منه المريض كأنه الشيطان الطاغية . لكن ما هي طبيعة العلاقة التي تربط الميول الغريزية بالإجبار على التكرار ؟ إذا ما وصلنا إلى هذه النقطة لم نستطع أن نتحاشى الظن بأننا قد عثرنا على السبيل الذي يدل على وجود خاصية عامة شاملة لكافة الغرائز ، بل لعلها تشمل الحياة العضوية بصفة عامة ، وهي خاصية لم نفطن إليها حتى الآن فطنة واضحة ، أو على الأقل لم نهتم بها كما ينبغي الاهتمام . ذلك أنه يبدو أن الغريزة هي إجبار في صميم الحياة العضوية لإرجاع حالة سابقة اضطرت الكائن الحي إلى التخلص منها تحت ضغط بعض القوى الخارجية القاهرة ؛ أو هي بعبارة أخرى نوع من المرونة العضوية ، أو بمعنى آخر ، تعبير عن « القصور الذاتي »^(١) الموجود في الحياة العضوية .

(١) « القصور الذاتي » بمعناه العام هو ميل الجسم إلى البقاء على حالة واحدة من الحركة أو السكون ، ويستعار هذا المصطلح من علوم المادة كي يدل في علوم الحياة والنفس على الميل إلى البقاء على حالة واحدة أي إلى المثابرة والتواصل . (المترجم) .

يبدو لنا هذا الرأي في الغرائز غريباً ، لأننا قد تعودنا أن نعتبر الغريزة عاملاً يدفع إلى التغير والنمو ؛ بينما نحن ندعى الآن إلى أن نتعرف في الغرائز ما يناقض ذلك تمام المناقضة — أى أن نرى فيها تعبيراً عن طبيعة المحافظة التي فطرت عليها الكائنات الحية . لكنه سرعان ما يحضرنا من الناحية الأخرى أمثلة من عالم الحيوان ، يبدو أنها تؤيد الرأي القائل بحتمية الغرائز من الناحية التاريخية . فهناك أنواع من السمك ، على سبيل المثال ، تبذل جهداً كبيراً في سبيل الهجرة في موسم التوالد والإفراخ كي تضع بيضها في مياه بحار أو أنهار خاصة تبعد بعداً شاسعاً عن المناطق التي تعيش بها . ويذهب كثير من علماء الأحياء إلى أن ما تقوم به تلك الأسماك إن هو إلا سعى نحو الأمكنة التي كانت تقيم فيها أسلافها من قبل ، تلك الأمكنة التي اضطرت إلى استبدال غيرها بها على مر الأزمان والعصور . ويذهب أولئك العلماء إلى أن هذا التفسير يصدق أيضاً على هجرة الطيور في مواسم معينة من بلاد إلى بلاد أخرى بعيدة . غير أننا سرعان ما نستغنى عن ضرورة البحث تلمساً لأمثلة أخرى إذا ذكرنا أن أقوى البراهين على وجود إجبار عضوي للتكرار يوجد في ظاهرات الوراثة وحقائق علم الأجنة . إذ نرى كيف تلزم جرثومة الحيوان الحي مجرى نموها على أن تستعيد (ولو في صورة عابرة موجزة) مقومات كافة الأشكال التي نشأت منها بدلاً من أن تيمم سريعاً من أقصر السبل نحو الشكل النهائي الذي كتب عليها أن تتخذه . ولا يمكن أن نرد هذا السلوك إلى أسباب آلية رداً ضئيلاً ، ومن ثم لا يمكن أن نهمل التفسير التاريخي . وعلى نفس المنوال نجد أن القدرة على الاستعاضة عن عضو مفقود بإتماء عضو جديد يشبه المفقود تمام الشبه ، هي قدرة تنتشر بين الحيوانات الدنيا وما يعلوها بكثير .

على أنه سوف يوجه إلينا هنا اعتراض واضح هو أنه قد يكون هناك في الواقع بالإضافة إلى الغرائز المحافظة التي ترغم على التكرار ، غرائز أخرى تدفع إلى الأمام نحو الرقي والتقدم ونحو إنتاج أشكال جديدة ، وهذا اعتراض لا ينبغي أن نغفله ، بل سوف نبحث فيه في مرحلة مقبلة من هذا الكتاب .

على أنه مما يستهويننا الآن أن نتابع البحث في الغرض القائل ، بأن كافة الغرائز تنحو نحو إحياء حالة سابقة ، إلى نهايته المنطقية . ولقد تبدو على النتيجة مسحة من الصوفية أو الإغراق في التعمق ، لكننا نشعر بأننا أبرياء تمام البراءة من هذا ومن ذاك ؛ ذلك لأننا نسعى فقط وراء نتائج البحث العلمي وما يترتب عليها من الآراء ، ولا نود أن نلتمس في تلك النتائج إلا أكثر ما يمكن التماسه فيها من الوضوح واليقين^(١) .

إذا فرضنا إذاً أن كافة الغرائز العضوية تتسم بالمحافظة ، وأن الكائنات الحية قد اكتسبتها خلال تاريخ تطورها القديم ، وأنها تنزع إلى إعادة الأحوال السابقة لتلك الكائنات ، لم يبق لنا إلا أن نرى أن ظاهرات التطور العضوي إنما تعود إلى مؤثرات خارجية يضطرب لها الكائن وتميد به عن نزعتة نحو الجمود . أي أن الكائن الحي لا يمكن لديه منذ مبدأ وجوده أي ميل إلى التغير ، وأنه — لو بقيت الظروف على حالها — لما قام إلا بتكرار المنوال الذي سارت عليه حياته . فإذا تابعنا البحث إلى نهايته وجدنا أن ما قد

[(١) لا ينبغي أن يغفل القارئ أن ما سوف يلي إنما هو متابعة إحدى " نهايتها " لكننا فيما بعد ، إذا ما وصلنا إلى البحث في الغرائز الجنسية ، وجدنا ما يكفي لتصحيح " التكرار " والحال منها] .

أثر على تطور الكائنات الحية إنما هو تاريخ الكرة الأرضية التي نعيش عليها وتاريخ علاقتها بالشمس . وهكذا تقبل الغرائز العضوية المحافظة كل تغير تفرضه ظروف الحياة على الكائن الحي وتختزنه كي تعيد تكراره ، ومن ثم تتخذ تلك الغرائز مظهراً خداعاً ، إذ يلوح أنها قوى تنزع نحو التغير والرق ، بينما هي في الواقع لا تسعى إلا نحو الوصول إلى هدف قديم ، متخذة لذلك ما تقادم من السبل أو ما استجد . زد على ذلك ، أنه يمكن أن نحدد هذه الغاية النهائية التي يسعى إليها كل كائن حي . ذلك أنه مما يناقض طبيعة الغرائز المحافظة أن يكون هدف الحياة حالة لم تعرض البتة للكائن ، من قبل ؛ بل على النقيض من ذلك ينبغي أن تكون حالة قديمة سابقة ، حالة مبدئية خلفها الكائن الحي وراءه في زمن ما ، وهو يسعى جاهداً نحو العودة إليها سالكاً لهذا سبلاً ملتوية تدفعه إليها خصائص تطوره . فإذا قبلنا الحقيقة التي لا استثناء لها : وهي أن كل حي يموت نتيجة لأسباب داخلية — أي يعود إلى حالة المادة الجامدة — فإنه يكون لازماً علينا أن نقول : « إن الموت غاية كل حي » ؛ وإذا ألقينا بنظرة إلى الوراء قلنا : « إن الميت قد وجد قبل الحي »

ظهرت خصائص الحياة أول ما ظهرت في المادة الجامدة بفعل قوة تخفي علينا طبيعتها . ولعل ظهور الحياة كان عملية تشبه في أسلوبها تلك العملية التي أدت فيما بعد إلى نشوء الشعور في طبقة معينة من المادة الحية . وأخذ التوتر ، الذي نشأ عندئذ فيما كان حتى ذلك الحين مادة جامدة ، يعمل على استرجاع التوازن ؛ ومن ثم كانت أول الغرائز التي ظهرت : هي الغريزة التي تدفع للعودة إلى المادة الجامدة . وكان من اليسير ، في ذلك العهد ، على المادة الحية أن تموت ؛ فالأغلب أن مدى حياتها كان قصيراً ، وأن

التكوين الكيماوى هو الذى كان يحدد مجرى هذه الحياة الغضة . ولعله قد انقضى عهد طويل كانت تخلق فيه المادة الحية ثم سرعان ما كانت تموت . حتى تغيرت الظروف الخارجية الحاسمة تغيراً كان من شأنه أن يلزم المادة التى كانت لاتزال حية بالانحراف انحرافاً واسعاً عن مجرى الحياة الأول ، وأن تلتوى بها السبل وتتعدّد كثيراً قبل أن تصل إلى غايتها ، وهى الموت . هذه السبل الملتوية إلى الموت ، التى مازالت تستمسك بها الغرائز المحافظة استمسكاً وثيقاً ، إنما هى الصورة التى تبدو بها لنا اليوم ظاهرات الحياة . ذلك لأننا إذا سلمنا تسليماً تاماً بأن طبيعة الغرائز إنما هى المحافظة واستبقاء القديم ، فإنه يكون من المحال أن نذهب إلى غير ذلك لتفسير منشأ الحياة وغايتها .

إذا بدت النتائج التى وصلنا إليها غريبة محيرة لم يلح لنا أقل غرابة ما سوف نقول به فيما يختص بالمجموعات العظمى للغرائز التى تنطوى عليها ظاهرات الحياة فى الكائنات الحية . فالتسليم بوجود غرائز للإبقاء على الحياة ننسبها لكافة الكائنات الحية يتناقض تناقضاً شديداً مع القول بأن الحياة الغريزية بأجمعها تهدف إلى التماس الموت . وعلى ضوء هذا تكاد تتلاشى أهمية غرائز المحافظة على الحياة والسيطرة والاعتزاز بالذات ، لأنها غرائز فرعية تصبح وظيفتها العمل على أن تضمن سير الكائن الحى فى سبيله إلى الموت ، وأن تدفع به بعيداً عن أى سبيل ، يؤدى به إلى العودة إلى حالة المادة الحاملة ، غير السبيل الذى تنطوى عليه ثنانياً الكائن الحى نفسه . وإذا بنا وقد عجزنا عن تفسير ذلك التصميم المحير الذى يدفعه إلى الإبقاء على حياته فى وجه أية عقبة تعترضها . وإذا بنا نجد أنفسنا ملزمين بالتسليم بأن الكائن الحى لا يبتغى الموت إلا وفقاً لطريقته الخاصة ، وبأن الغرائز

التي تقوم بحراسة حياته ليست في صميمها سوى رسل للمنية والموت . ومن هنا تقع في التناقض إذ نقول إن الكائن الحي يجاهد جهاداً عنيفاً ضد الأحداث (أو الأخطار) التي قد تعينه على الوصول عاجلاً إلى غاية الحياة بالسير في أقصر السبل المؤدية إلى هذه الغاية . ورغم هذا فإن ذلك هو في الواقع ما يفرق بين السلوك الغريزي وبين المحاولات التي يملها الذكاء .

لكن فلتتوقف برهة ولنفكر . إن الأمر لا يمكن أن يكون على هذا الحال . ذلك لأن الغرائز الجنسية ، التي تنسب لها نظرية الأمراض النفسية عملاً خاصاً ، تدل إلينا برأى يختلف عن هذا تمام الاختلاف .

فالضغط الخارجي الذي يدفع الكائنات الحية إلى زيادة النماء والتطور لم يفرض نفسه على كل كائن . فقد أفلحت كثير من الكائنات الحية في البقاء حتى اليوم في مستواها الوضعي ، ولا بد أن كثيراً من مثل هذه الكائنات ، إن لم تكن جميعاً ، ما زالت تشبه الحيوانات والنباتات العليا في مراحلها المبكرة . وعلى نفس المنوال ، لا تتبع كافة الأحياء الأولية ، التي تدخل في التكوين المعقد لأجسام الكائنات العليا ، كل مراحل التطور التي تؤدي إلى غاية الحياة ، ألا وهي الموت . فبعضها ، مثل جراثيم التناسل ، قد تحتفظ بالتكوين الأصل للمادة الحية ، حتى إذا مر بعض الوقت ، انفصلت عن الكائن الحي كله بما استوعبته من الاستعدادات الغريزية التي كانت قد انتقلت إليها عن طريق الوراثة أو ظفرت بها عن طريق الاكتساب الجديد . وهاتين الخاصيتين هما في الواقع — ما يهيئ لجراثيم التناسل حياة مستقلة منفصلة . فإذا ما واثها الظروف بدأت تتحول وتنمو ، أي بدأت تتكرر عين الدورة التي يعود إليها الفضل فيما لها من حياة ، فإذا ما بلغت غايتها واصل جانب من الكائن سيره من العدم ، بينما يفصل عنه جانب آخر ويبدأ الدورة من جديد في صورة جرثومة من

جراثيم التناسل . وهكذا تعمل هذه الجراثيم على دفع الموت عن المادة الحية ، وهى تفلح فى أن تظفر لها بما يبدو حتماً كأنه قدرة على الخلود ، رغم أن هذا قد لا يعنى أكثر من إطالة السبيل الذى يؤدى بها إلى الموت . وبما له أكبر الدلالة أن ما يعضد الخلية التناسلية فى قيامها بهذه الوظيفة ، بل ما يهين إمكان حدوثها على الإطلاق ، إنما هو انضمامها إلى خلية أخرى تشبهها من نواح رغم ، اختلافها وإياها من نواح أخرى .

هذه الغرائز التى ترعى أقدار تلك الكائنات الأولية التى يمتد بقاؤها أكثر من بقاء الفرد بأجمعه ، والتى تهين لتلك الكائنات ملجأ أميناً حين تعجز عن الدفاع فى وجه العوامل التى تصدر عن العالم الخارجى ، والتى تؤدى إلى أن اجتماعها بغيرها من الخلايا التناسلية ، وما إلى ذلك ، إنما هى مجموعة الغرائز الجنسية . وهى تتميز بالميل إلى المحافظة ، حالها فى ذلك حال غيرها من الغرائز ، لأنها تعمل على استعادة الأحوال الأولى للمادة الحية ؛ لكنها أكثر ميلاً للمحافظة ، إذ هى تتميز بشدة مقاومتها للمؤثرات الخارجية ؛ كما أنها أشد محافظة من ناحية أخرى إذا أنها تعمل فى سبيل الإبقاء على الحياة أمداً يمتد زمنياً طويلاً (١) . فالغرائز الجنسية ، فى الواقع هى غرائز الحياة بمعنى الكلمة . إذ هى التى تقف دون تحقيق الغاية التى تسعى إليها الغرائز الأخرى ، هذه الغرائز التى تؤدى بها وظيفتها إلى الموت ؛ وهذا الأمر الواقع يثبت أن هناك تعارضاً بين الغرائز الجنسية وغيرها من الغرائز ، تعارضاً وقفنا على أهميته ومقدار خطره من زمن طويل منذ أن اهتدينا بالتحليل النفسى إلى تفسير الأمراض النفسية . فالأمر يلوح كأن حياة الكائن تجرى فى إيقاع يختلف ويتباين : مجموعة من الغرائز تنطلق إلى الأمام تسعى نحو غاية الحياة النهائية فى أقصى ما تستطيعه من العجلة

[(١) ورغم هذا فإنه لا يمكن أن ننسب ذلك الدافع الداخلى نحو «التقدم» ونحو المراتب العليا من التطور لا إلى هذه الغرائز وحدها . (انظر ما بعد ص ٥٥) .]

والتسرع : لكنها إذا ما وصلت في مسيرها إلى مرحلة معينة كرّت المجموعة الأخرى راجعة إلى مرحلة خاصة حيث يمكن أن تبدأ الرحلة من جديد ومن ثم يطول السفر . ورغم أنه من المحقق أن الميل الجنسي وأن التفرقة بين الجنسين لم توجد منذ أن وجدت الحياة ، إلا أنه من الممكن أن الغرائز التي أضحت خليقة فيما بعد بأن يطلق عليها اسم الغرائز الجنسية كانت موجودة فعالة منذ مطلع الأمر ، وأنها شرعت في مناوعة « غرائز الأنا »^(١) منذ ذلك الحين ، لا بعد ذلك .

فلنتوقف هنا قليلا ولنتأمل وقع الخطأ التي خطوناها كي نرى إلى ما يمكن أن يؤدي هذه التأملات التي ذهبنا إليها . أترى أنه لا يوجد حقاً ، فيما عدا الغرائز الجنسية ، أية غرائز أخرى تعمل في سبيل إعادة الأحوال إلى ما كانت عليه ؟ أو أية غرائز أخرى تهدف نحو الوصول إلى حالة لم تقع البتة من قبل ؟ الحق أني لا أعرف في عالم الحياة العضوية أي مثل واحد يمكن أن ينشأ ما أذهب إليه هنا . ليس من شك في أنه لا توجد أية غريزة شاملة في عالم الحيوان أو النبات تدفع بالأحياء إلى التقدم والتطور ، رغم أنه لا يمكن أن ننكر في الواقع أن التطور يسير نحو التقدم . لكننا من ناحية كثيرة ما نختلف في اعتبار إحدى مراحل التطور أعلى من مراحل الأخرى ، ومن ناحية أخرى يقرر علم الأحياء أن التطور في بعض الخصائص كثيراً ما يعادله ويفوقه تأخر في بعض الخصائص الأخرى . أضف إلى هذا أن هناك كثيراً من الحيوانات التي يمكن أن نستدل من مراحل نموها المبكرة أن تحولها (أو تطورها) قد سلك ، على النقيض من ذلك ، مسلك التأخر والانتكاس . ولقد يكون التطور والانتكاس من نتائج

[(١) ينبغي أن يكون مفهوماً من السياق أن مصطلح «غرائز الأنا» ، يستخدم هنا على أنه

وصف مؤقت ، يرتد أصله إلا ما كنا نستعمله من مصطلحات في مطالع التحليل النفسي .]

التكيف وفقاً لضغط العوامل الخارجية ، وفي كلا الحالين يكون الدور الذى تقوم به الغرائز مقصوراً على الاحتفاظ بالتحول الذى يفرض على الكائن الحى ، بأن تجد فى هذا التحول مصدراً للذة والمتعة^(١) .

وقد يكون من العسير أيضاً على الكثير منا أن يتخلوا عن الإيمان بأن هناك غريزة فى الإنسان تدفعه إلى السعى نحو الكمال ، هى التى هيات له الوصول إلى ما هو عليه اليوم من تقدم عقلى وسمو خلقى ، وهى التى قد تهدى خطاه حتى تصل به إلى مستوى الإنسان الأعلى (السوبرمان) . لكننى ، مع هذا ، لا أسلم بوجود مثل هذه الغريزة الداخلية ولا أرى سبيلاً للإبقاء على مثل هذا الوهم الرفيق الخداع . ذلك لأنه يلوح لى أن التطور البشرى ، وما وصل إليه حتى اليوم ، لا يتطلب أن نلتمس له تفسيراً يختلف عن تفسير التطور فى الحيوان . وإن ما يبدو لدى أقلية ، من الناس من رغبة ملحة جامحة تدفع بهم إلى الرقى والكمال ليتمكن تفسيره على أنه نتيجة كبت الميول الغريزية الذى يقوم عليه كل سام رفيع فى الحضارة الإنسانية . ذلك لأن الغريزة المكبوتة لا تنى ألبتة عن التماس الإشباع الكامل ، الذى يقوم على تكرار حالة أولية من حالات الرضا والإشباع . ولا يكفى ، فى سبيل التخفيف من التوتر الدائم الذى يؤدي إليه كبت الغرائز ، أى شكل من أشكال الاستبدال الكامل أو رد الفعل أو أى لون من ألوان التسامى والإعلاء ؛ ومن ثم كان الفرق بين مقدار اللذة والإشباع المرغوب وبين المقدار الذى يمكن الظفر به هو العامل الفعال الذى لا يسمح للإنسان بالتوقف عند أية مرحلة معينة بل « يدفع به أبداً ، كما يقول الشاعر ،

[(١) وصل فيرنزى (١٩١٣) فى بحثه عن « مراحل نمو القدرة على إدراك الواقع » ، إلى عين النتيجة من طريق آخر ، قال : « لو تابعنا هذه الفكرة حتى نهايتها المنطقية لألقى المرء نفسه وقد سلم بأن هناك نزعة ، نحو المثابة أو النكوص تسيطر على عالم الحياة العضوية أيضاً ، بينا النزعة نحو التقدم أو التكيف وما إليه ، لا يبدو إلا بتأثير العوامل الخارجية » .]

إلى الأمام لا تلحقه استكانة ولا يصيبه وهن»^(١) . أما العودة خلال السبيل الذى يؤدى إلى الحصول على الإشباع الكامل فتقف دونه ، بصفة عامة ، ألوان العقبات والمقاومة التى تؤيد أشكال الكبت وتبقى عليه . ومن ثم لم يكن هناك من سبيل آخر إلا الاتجاه نحو الناحية التى لا يزال السبيل إليها مفتوحاً ، ألا وهى ناحية النمو والتطور — رغم أنه لا أمل هناك فى تحقيق الغاية المنشودة أو الوصول إلى الهدف المقصود . إن العمليات التى تؤدى إلى نشوء المخاوف العصابية^(٢) ، وهى مخاوف ليست فى الواقع إلا محاولة للهرب من إشباع إحدى الغرائز ، لتزودنا بأنموذج واضح يبين لنا كيف تنشأ تلك التزعة المزعومة التى يسمونها « غريزة السعى نحو الكمال » — هذه « الغريزة » التى لا يمكن أن نقول بوجودها عند كافة بنى البشر . لكن الحق أن الشروط الديناميكية لنشوء هذه التزعة موجودة عند الناس كافة ؛ غير أنه لا يتأتى إلا فى الأحوال النادرة أن نهىء الشروط الاقتصادية حدوث تلك الظاهرة .

ورغم هذا فإنى أود أن أضيف هنا إشارة موجزة إلى أن عمل « الحب » ، على الجمع بين الوحدات العضوية فى وحدات أكبر ثم أكبر ، قد يكون بديلاً لذلك « الميل الغريزى نحو الكمال » الذى لا نستطيع أن نسلم بوجوده فى فطرة الإنسان . ذلك لأن الظاهرات التى ينسبونها لذلك الميل يمكن تفسيرها بما يهدف إليه الحب ، بالإضافة إلى نتائج الكبت .

[(١) من الفصل الأول من « فاوست » للشاعر الألماني جوته] .

(٢) الخوف المرضية (Phbias) هى الخوف الدائم من شيء أو موقف أو عمل خوفاً لا يبرره الواقع . ومن تلك المخاوف الخوف من بعض الحيوان أو من الشوارع أو من الأماكن الضيقة ، وغير ذلك . (الترجمة) .

الفصل السادس

انتهينا مما قمنا به من الاستقصاء السالف إلى أن هناك فرقاً شاسعاً وتعارضاً شديداً بين غرائز «الأنا» والغرائز الجنسية ، وإلى القول بأن الأولى تدفع نحو الموت بينما تعمل الثانية على إطالة الحياة . غير أنه لا بد أن هذه النتيجة لا تبدو لأحد - حتى لنا نحن - نتيجة مرضية من نواح عدة . أضف إلى هذا أنه لا يمكن أن ننسب الميل إلى المحافظة . بله الميل إلى الارتداد ، إلا لتلك الفئة الأولى من الغرائز ؛ وهى الصفة التى تلازم إجبار التكرار . ذلك لأننا قد ذهبنا إلى أن غرائز الأنا تصدر عن نشوء الحياة من المادة الجامدة ، فهى تعمل على استعادة أحوال الجهاد ؛ على حين أنه من الواضح أن الغرائز الجنسية - رغم أنها، والحق، تستعيد الأحوال الأولية للكائن الحى - تهدف بكل وسيلة ممكنة إلى الجمع بين خليتين تناسليتين تتميز كل منهما بخصائص معينة . فإذا لم يتحقق هذا التوحيد ، ماتت الخلية التناسلية ، وماتت معها كافة العناصر التى ينطوى عليها الكائن الحى بما يتضمنه من أكدهاس الخلايا . ويتوقف على تحقيق ذلك الشرط أن تستطيع الوظيفة الجنسية إطالة حياة الخلية وأن تضمنى عليها مسحة من الخلود . لكن ماهو الحادث الهام الخطير فى نمو المادة الحية الذى يتكرر فى التناسل الجنسى ، أو فى المرحلة السابقة له التى تقتصر على اهتمام حويصلتين من حويصلات الحياة (البروتوبلازم) ؟ وهنا يسقط فى أيدينا ونعجز عن الجواب ؛ بل نشعر نتيجة لذلك بالراحة إذا تداعت كافة الدعائم التى تقوم عليها الحجة التى قلنا بها وتبين أننا قد كنا مخطئين . إذ يتبين بذلك أن التناقض بين

غرائز الأنا أو غرائز الموت وبين الغرائز الجنسية أو غرائز الحياة لم يعد له ما يبرره وأن إجبار التكرار لم يعد له من الإهمية أو الخطر ما نسبناه إليه .

فلنعد إذن إلى أحد الفروض التي أوردناها من قبل ، فلعلنا نستطيع بذلك أن ندحضها دحضاً كاملاً . لقد وصلنا إلى نتائج بعيدة المدى حين افترضنا أن كل مادة حية مصيرها إلى الموت بفعل أسباب داخلية . ولم نلتزم ما ينبغي من الحرص حين قلنا بهذا الفرض ، لأنه والحق لا يلوح لنا فرضاً علمياً على الإطلاق . ذلك لأننا قد ألفنا أن نظن أن ذلك هو الواقع ويؤيدنا في هذا الظن ما يجري على ألسنة الكتاب والشعراء . ولعلنا قد اتخذنا ذلك اللون من الإيمان لأن فيه بعض العزاء والسلوى : فإذا كان مكتوباً علينا أن نموت وأن يختطف منا الموت قبل ذلك من نحبهم ونعتر بهم ، كان من الأيسر أن نتقبل ذلك إذا نحن سلمنا خاضعين لنا موس محتوم جبار من نواميس الطبيعة أكثر من التسليم بأنه أمر تفرضه الصدفة العابرة التي قد يمكن الروغان أو الهروب منها . وقد يمكن مع هذا ، ألا يكون ذلك الإيمان بضرورة الموت وحتميته نتيجة لأسباب داخلية سوى شكل آخر من أشكال الأوهام التي نفرق فيها « حتى نخفف عن كواهلنا أثقال الحياة »^(١) . ومن المحقق أن مثل هذا الإيمان ليس إيماناً بدائياً ؛ إذ أن فكرة « الموت الطبيعي » فكرة لم تطرأ البتة في تفكير الشعوب البدائية ؛ بل إنهم كانوا ينسبون أى شكل من أشكال المنية ينزل بهم إلى فعل عدو من الأعداء أو روح من الأرواح الشريرة . لهذا لم يكن هناك بد من أن نلجأ إلى علم الأحياء نلتمس فيه ما لهذا الإيمان من صحة وصواب .

إذا فعلنا هذا فقد تعثرنا الدهشة من قلة الاتفاق بين علماء الأحياء فيما

[(١) عن الفصل الأول من « مأساة مسينا » للشاعر شيلر .]

يختص بموضوع الموت الطبيعي ، بل الواقع أن مسألة الموت بأكملها تحيرهم وتخفى عليهم خفاء تاماً . إن مما يؤيد الإيمان بأن هناك من الموت ما ينزل بالفرد نتيجة لأسباب طبيعية هو أن للحيوانات العليا على الأقل متوسطاً مألوفاً لمدى الحياة . غير أننا مما يناقض ذلك أن بعض الحيوانات الضخمة وبعض أنواع الأشجار الهائلة الجبارة تمتد آجالها عصوراً طويلة امتداداً نعجز اليوم عن حسابه أو التحقق من مداده . ويذهب العالم « وليم فليس » (١٩٠٦) إلى أن كافة ظاهرات الحياة التي تبدو من الكائنات العضوية - ومنها دون شك ما ينزل بها من موت - ترتبط ارتباطاً وثيقاً باستكمالها لفترات محدودة من العمر يحددها اعتماد نوعين من المادة الحية (أحدهما مذكور والآخر مؤنث) على السنة الشمسية . على أنا مع ذلك لو رأينا إلى السهولة التي تستطيع بها العوامل الخارجية أن تؤثر تأثيراً شاملاً على الوقت الذي تبدو فيه ظاهرات الحياة ، وخاصة في علم النبات ، بتقديم مواسم ظهوره أو تأخيرها ، لحق لنا أن نتشكك في صدق ما يذهب إليه ذلك العالم ، أو على الأقل أن نتردد في التسليم بأن القوانين التي وضعها هي وحدها العوامل الفعالة .

لكن الأبحاث التي وردت في مؤلفات العلامة « وايزمان »^(١) عن الموت وعن

(١) وايزمان A: Weisman (١٨٣٤ - ١٩١٤) ، أحد كبار علماء البيولوجيا الألمان . كان أستاذاً لعلم الحيوان بجامعة فرايبورج . ذاع اسمه بعد أن تحول ، نتيجة لضعف بصره ، عن الأبحاث المكرويسكوبية إلى البحث في المسائل البيولوجية الكبرى .

وقد ترجمت بعض رسائله إلى اللغة الإنجليزية في أواخر القرن الماضي بعنوان « دراسات في نظريات التوارث » وقدم لها دراوين مبيناً أهمية الآراء التي أدلى بها وايزمان .

ويقترن اسم وايزمان بنظريته عن دور الخلية التناسلية في الوراثة وما يربط بها من إنكار لانتقال الخصائص المكتسبة . وقد نشرت له عدة كتب تجمع أبحاثه الخاصة بدوام الخلية التناسلية كما اهتمت غيره من العلماء بعد ذلك إلى ما يؤيد ما قال به عن تكوين هذه الخلية .

مدى الحياة عند الكائنات العضوية تسرعى منا أشد الانتباه فيما نحن بصددده ،
 إذ إليه يعود الفضل فى القول بتقسيم المادة الحية إلى جانب فان وجانب خالد .
 والجانب الفانى هو الجسم فى أضيق معانيه - ذلك الجسم الذى يخضع وحده
 للموت الطبيعى . أما الخلايا التناسلية فإنها خليقة بالخلود بمعنى أنها تستطيع ، إذا واثها
 الظروف ، أن تتحول إلى فرد جديد ، أو بعبارة أخرى أن تحيط نفسها ببدن جديد .
 وما يستلفت النظر فى هذا الرأى مابه من تشابه لم نكن ننتظره بينه
 وبين الرأى الذى قلنا به ، ذلك الرأى الذى وصلنا إليه من سبيل يختلف عن
 السبيل الذى سلكه وايزمان تمام الاختلاف . إذ هو بدراسته للمادة الحية دراسة
 وصفية قد استطاع أن يفرق فى تلك المادة بين جانب كتب عليه الموت - هو
 البنية أو البدن - وبين الخلية التناسلية وهى جانب يختلف عن ذلك ويختص
 بالجنس والوراثة كما يعمل على حفظ النوع عن طريق التناسل . ولما كنا قد
 تجنبنا دراسة المادة الحية وبحثنا فى القوى التى تعمل فيها ، فقد استطعنا أن نفرق
 بين نوعين من الغرائز : تلك التى تسعى بالحى نحو منيته وبين غيرها من الغرائز ،
 ألا وهى الغرائز الجنسية التى تحاول أبداً أن تجدد الحياة وتنجح فى تحقيق هذا
 التجديد . ويلوح أن هذا هو البديل الديناميكى للنظرية الوصفية التى قال بها وايزمان .
 غير أنه سرعان ما تتلاشى هذه الصلة القوية بين النظريتين إذا ما رأينا
 إلى آراء وايزمان عن مشكلة الموت . ذلك لأنه لا ينسب التمييز بين البدن الفانى
 وبين خلية التناسل الخالدة إلا للكائنات العضوية الكثيرة الخلايا ؛ أما الكائنات
 ذات الخلية الواحدة فلا تزال فيها الخلية الفردية والخلية التناسلية خلية واحدة
 لا تفرقة بينهما ولا تمييز . ومن ثم ذهب وايزمان إلى أن الكائنات العضوية
 المفردة الخلية خالدة بالقوة ^(١) ، وإلى أن الموت لا يظهر إلا بظهور الكائنات

(١) نستعمل لفظ « بالقوة » وفق الاصطلاح الفلسفى ، أى أنه يمكن أن يكون خالداً

(المترجم) .

ذات الخلايا الكثيرة . ويقول إن الحق أن موت الحيوانات العليا موت طبيعي ، تؤدي إليه أسباب داخلية ؛ غير أنه لا يقوم على أية خاصة مبدئية تتميز بها المادة الحية ، ولا يمكن اعتباره ضرورة لا محيص عنها إذ أن أصوله تتغلغل ، في صميم الحياة . بل الأرجح أن الموت ليس إلّا لوناً من ألوان الحيلة والتخلص ، وهو مظهر من مظاهر التكيف وفقاً لشروط الحياة الخارجية ؛ ذلك لأن خلايا البدن إذا ما انقسمت إلى جسم وجراثيم تناسلية أصبح امتداد حياة الفرد دون نهاية صورة مسرقة من صور الترف لا مرمى لها ولا جدوى منها ، فإن وقوع هذا التميز في الكائنات العضوية كثيرة الخلايا قد أدى إلى إمكان الموت ومناسبته . ومنذ ذلك الحين صار بدن الكائنات العليا يموت بعد فترات معينة نتيجة لأسباب داخلية ، على حين أن الخلايا التناسلية بقيت خالدة . على أن هذا من ناحية أخرى ليس الحال في التناسل الذي لم يظهر بظهور الموت ، بل كان على النقيض من ذلك خاصة أولية من خصائص المادة الحية وكان حاله في ذلك حال النمو والحياة ، فكان باقياً مستمراً منذ أن ظهرت الحياة على وجه الأرض .

ومن اليسير أن نرى أن التسليم بأقوال وايزمان التي يقرر فيها أن الموت الطبيعي يلزم حياة الحيوانات العليا لا يؤيد ما نذهب إليه في كثير . ذلك لأنه إذا كان الموت أمراً لم تعرفه الكائنات العضوية إلا في عصر متأخر لم يكن هناك محل للقول بوجود غرائز الموت منذ أن ظهرت الحياة على هذه الأرض . قد تنتهي آجال الكائنات متعددة الخلايا لأسباب داخلية كان يضطرب تمايزها أو تفسد عمليات الهدم والبناء فيها ، لكن هذا الأمر لا يعنيننا كثيراً في المسألة التي نبحث فيها . بل إن تفسير أصل الموت على مثل هذا المنوال لأقل اختلافاً بكثير عن طرائق تفكيرنا العادية من الفرض الغريب الذي قلنا به حيث قررنا وجود « غرائز الموت » .

أما ما دار حول آراء وايزمان من نقاش فإنه لم يؤد ، على قدر ما أرى ،

إلى أى نتيجة حاسمة من أى ناحية من النواحي . فلقد عاد بعض الكتاب إلى التسليم بآراء « جوته » (١٨٨٣) الذى اعتبر الموت نتيجة مباشرة للتناسل . أما « هارتمان » (١٩٠٦) فإنه لم ير أن ظهور « جسم ميت » — أى جزء ميت من المادة الحية — دلالة على الموت ، بل هو يعرف الموت بأنه : « انتهاء نمو الفرد » . ومن ثم تكون الأحياء المفردة الخلية ، وفق هذا التعريف ، أحياء فانية ؛ فالموت يقع أبداً بتلك الأحياء عند وقوع التناسل ، ولو أنه يخفى إلى حد ما لأن كيان الحيوان الوالد بأكمله قد ينتقل مباشرة إلى كيان أبنائه .

وسرعان ما اتجهت الأبحاث بعد ذلك إلى إجراء التجارب على الأحياء ذات الخلية الواحدة للتحقق مما زعموه من خلود المادة الحية . ووصل أحد الأمريكيين من علماء الأحياء ، يدعى « وودرف » ، من التجارب التى أجراها على أحد الأحياء الدنيا التى تعرف باسم « الأنفوزوريا الشعيرية » ، التى يتناسل الواحد منها بانقسامه إلى فردين ، إلى أن حياته تمتد حتى الجبل التاسع والعشرين بعد ثلاثة آلاف (حين توقف العالم عن الاستمرار فى التجربة) بعد أن كان يعزل النسل فى كل مرة ويضعه فى ماء عذب . وقد تبين له أن الخلف البعيد للجرثومة الأولى كان له من الحيوية مثل ما كان لجلده ، ولم تبد عليه أية دلالة من دلالات الهرم أو الانحلال . فإن دلت مثل هذه الأرقام على شيء فإنها قد تثبت أن خلود الحيوانات ذات الخلية الواحدة أمر يمكن التحقق منه تجريبياً .

لكن غيره من العلماء قد اختلفوا وإياه فيما وصلوا إليه من نتائج . إذ وجد « موباه » و « كرلكنز » وغيرهما أن بعد عدد من الانقسامات يلحق الضعف بالحيوان ، ويتضاءل حجمه ، وتذهب عنه بعض خصائصه ، ثم توافيه المنية ، إلا إذا اتخذت بعض الوسائل لإسعافه وتقويته . وإذا كان هذا هو الحال فإنه يبدو أن الكائنات المفردة الخلية ينزل بها الموت بعد فترة من الهرم كما ينزل

بالحيوانات العليا . وهذا رأى يناقض تمام المناقضة رأى وايزمان الذى يقول إن الموت أمر لم تعرفه الكائنات الحية إلا فى مرحلة متأخرة من مراحل التطور .
تؤدى بنا هذه التجارب إلى حقيقتين يمكن أن نعتد عليهما :

الأولى : أنه إذا أمكن أن يندمج اثنان من هذه الأحياء أحدهما فى الآخر قبل أن تلحق بهما أعراض الهرم أمكنهما أن ينقذا نفسيهما من وهن الشيخوخة « وأن يجددا شبابهما » . فالاندماج يسبق التناسل الجنسي عند الحيوانات العليا ، وهو لا يؤدى إلى إكثار النسل إذ يقتصر على المزج بين مادتي فردين من الأفراد . ومع ذلك فإن ما يتأتى عن الاندماج من تقوية يمكن أن نستبدل به بعض العناصر المقوية ، أو أن نغير تكوين السائل الذى يتغذى عليه الحيوان ، أو نرفع درجة حرارته أو نوقع بعض الهزات به . ويذكرنا هذا بالتجربة المشهورة التى قام بها العلامة « لويب » واستطاع فيها — مستعيناً ببعض المثبرات الكيميائية المعينة — أن يدفع بيض قنأفد البحر إلى الانقسام ، وهى عملية لا تحدث فى الظروف العادية إلا بعد الإخصاب .

والثانية : أنه من المحتمل ، على الرغم من ذلك ، أن ينزل الموت الطبيعى بالأحياء الدنيا كنتيجة محتومة لعملية الحياة . ذلك لأن التناقض بين النتائج التى وصل إليها « وودرف » وبين ما وصل إليه غيره من المحدثين إنما يعود إلى أنه كان يزود كل جيل بسائل جديد للتغذية ، وإلى أنه كان إذا أغفل القيام بذلك لاحظ عين مظاهر الهرم التى كان يلاحظها غيره ، وقد انتهى من ذلك إلى أن تلك الأحياء كان يلحقها الأذى من متخلفات عمليات الهدم والبناء التى كانت تلك الأحياء تلفظها إلى السائل الذى تعيش فيه ، فاستطاع بذلك أن يجزم بأن المواد التى كانت تتخلف من عمليات الهدم والبناء التى تجرى فى جسم الحيوان هى السبب فى هلاك أى جيل من أجياله . ذلك لأن نفس الحيوانات التى كان لا بد من

هلاكها إذا تكدر بعضها على بعض في سائل مغذ واحد كانت تنشط إذا وضعت في محلول مشبع بمخلفات تركها نوع بعيد القرابة عنها من الحيوانات الأخرى . فكأن حيوان « الإنفوزوريا » إذا ترك وشأنه مات موتاً طبيعياً ، ما لم يتخلص تخلصاً تاماً من جميع المتخلفات التي يفرزها نتيجة لعمليات الهضم والبناء فيه . ولقد يكون مثل هذا العجز هو العامل الذي يؤدي إلى موت كافة الحيوانات العليا أيضاً .

إذا ما وصلنا إلى هذا حق لنا أن نتساءل عن الغاية التي نهدف لها إذ نحاول أن نلتمس حلاً لمشكلة الموت الطبيعي من دراستنا للأحياء المفردة الخلية . ذلك لأن التنظيم الأولي لتلك الكائنات قد يحجب عن أنظارنا بعض الخصائص الهامة التي لا تظهر للعيان ، إلا في الحيوانات العليا حيث يمكن أن تبدو في صورة وصفية . هذا إلى أننا لو تخيلنا عن وجهة النظر المكانية الوصفية واتخذنا الوجهة الديناميكية ، لتساوى عندنا أن نستطيع إثبات وقوع الموت الطبيعي بالكائنات الدنيا وألا نستطيع ذلك بالإثبات . ذلك لأن المادة التي يمكن أن تتميز فيها الخلود بعد ذلك لم تنفصل بعد من المادة الفانية . ولهذا يمكن أن نذهب إلى أن القوى الغريزية التي تدفع بخطا الحي إلى الموت قد تكون عاملة فعالة أيضاً في تلك الأحياء الدنيا منذ فجر الحياة ، رغم أن آثارها قد تختفي اختفاء تاماً بفعل القوى التي تحافظ على الحياة ، حتى ليصبح من العسير المسرف في العسر أن نتبين أية دلالة لوجود تلك القوى الأولى . أضف إلى ذلك أننا قد وجدنا أن الأبحاث التي قام بها علماء الأحياء تخول لنا أن نذهب إلى أن مثل تلك العمليات الداخلية التي تؤدي إلى الموت تقع أيضاً في ثنايا الأحياء الدنيا ، حتى إنه لو ثبت أن هذه الأحياء خالدة كما يقول وايزمان فإن رأيه القائل بأن الموت لم يعرف إلا في مراحل متأخرة من التطور لن ينطبق إلا على الظواهرات

الواضحة له ، ولن ينافى القول بوجود عمليات تنزع نحوه وتهدف إليه .
وهكذا نرى أن علم الأحياء لم يحقق ما كنا نتوقعه من نفي قاطع لوجود
غرائز الموت . ومن ثم حق لنا أن نواصل البحث في إمكان وجودها ، وخاصة
إذ كان لدينا من الأسباب الأخرى ما يدعو إلى ذلك . وما زال التشابه العجيب
بين تفرقة وإيزمان بين الجسم والخلية التناسلية وتفرقتنا بين غرائز الموت وغرائز
الحياة قائماً له دلالة وأهميته .

ولنتريث قليلاً كي نبحث في هذا الرأي الاثنيني عن الحياة الغريزية
إذ هناك ، وفقاً للنظرية التي يقول بها « هيرنج » ، نوعان من العمليات التي
تجرى في المادة الحية ويناقض أحدهما الآخر ، فبينما يعمل أحدهما على البناء أو
التمثيل يعمل الآخر على الهدم أو التخلص . ألا يمكن أن نلتمس في هذين
الاتجاهين اللذين تسير نحوهما عمليات الحياة مصدراً لما نذهب إليه من وجود
دافعين في الحياة الغريزية ألا وهما غرائز الحياة وغرائز الموت ؟

ومهما يكن من أمر ، فإن هناك شيئاً آخر لا يمكن أن يطول إغفالنا له ،
إذ يبدو أننا قد انزلت بنا الخطأ ، دون فطنة منا ، إلى أحضان الفلسفة التي
يقول بها « شوبنهاور » ، إذ هو يذهب إلى أن الموت « هو النهاية الحقة وهو
لذلك غاية الحياة »^(١) . على حين أن الغريزة الجنسية ليست إلا أداة تتجسم
فيها إرادة الحياة ورغبتها .

ولنتقم بمحاولة جريئة نخطو بها خطوة أخرى إلى الأمام . من المسلم به عامة
أن اتحاد عدد من الخلايا بعضها مع بعض — وهي خاصة الكائنات ذات
الخلايا الكثيرة — قد أصبح الوسيلة لإطالة أعمارها . فالخلية الواحدة تساعد على
الإبقاء على حياة غيرها ، ومن ثم تستطيع مجموعة الخلايا أن تبقى حية حتى لو

[Schopenhauer (1851) *Samtliche Werke*; ed. Hubscher. 1938. 5236: (١)]

كتب على الخلايا المفردة أن تموت . ولقد وقفنا أيضاً فيما سلف على أن الاندماج هو الآخر ، أى الانضمام المؤقت لكائنين من ذوات الخلية الواحدة ، له أثره في المحافظة على حياة كليهما وتجديد شبابه . فإذا كان الأمر كذلك حق لنا أن نحاول تطبيق نظرية «الليبدو» ، التي هدانا إليها التحليل النفسى ، على العلاقة بين الخلايا وحق لنا أن نذهب إلى أن غرائز الحياة أو الغرائز الجنسية الفعالة في كل خلية تتخذ من الخلايا الأخرى هدفاً لها وموضوعاً فتتقضى بذلك على جانب من غرائز الموت (أى تعطل جانباً من العمليات التي تدفع إليها) تلك الغرائز التي توجد في الخلايا الأخرى وبذلك تحافظ على حياتها ، على حين أن الخلايا الأخرى تقوم بنفس الأمر في سبيل هذه الخلايا ، بينما تضحي غيرها بنفسها عند قيامها بهذه الوظيفة الشهوية . ومن هذا يبدو أن خلايا التناسل نفسها تتميز بإغراقها في « النرجسية » - وهي مصطلح ألفنا استخدامه في أبحاثنا عن الأمراض النفسية كى نصف به الفرد بأكمله إن هو احتفظ بما لديه من « ليبدو » في نطاق ذاته ولم يطلق أى جانب من شحنته نحو الأشياء الخارجة عنه . فالخلايا التناسلية تستمسك بما لديها من ليبدو ، ومن النشاط الذى يصدر عن غرائز الحياة ، فتبقيه لنفسه كأنه احتياطي تلجأ إلى استخدامه إذا ما شرعت بعد ذلك في القيام بأعبائها الإنشائية الخطيرة ، (بل إنه قد ينبغي أن نصف خلايا الأورام الخبيثة التي تعيث في الكائن الحي بأنها « نرجسية » أيضاً : لأن علم الأمراض لا يتردد في اعتبار أن جراثيمها فطرية وأن لها خصائص تلازم حياة الجنين) . وعلى هذا المنوال يكون ما نقوله عن الليبدو الذى يلزم الغرائز الجنسية متفقاً وإيروس (إله الحب) كما يتحدث عنه الشعراء والفلاسفة في أنه يعمل على جمع الكائنات الحية بعضها إلى بعض وعلى ربطها جميعاً في وثاق واحد .

إذا ما وصلنا إلى هذا أتيحت لنا الفرصة كى نلقى نظرة على النمو الوئيد

الذى سارت فيه النظرية التى قلنا بها عن الليبدو . فقد ألزمتنا أول الأمر ، من تحليل الأمراض النفسية التحويلية ^(١) ، أن نلاحظ التعارض بين الغرائز الجنسية ، هذه الغرائز التى تتجه نحو أحد الموضوعات ^(٢) ، وبين بعض الغرائز الأخرى التى لم نكن نعرف عنها سوى النزر اليسير فوصفناها وصفاً مؤقتاً بأنها « غرائز الأنا » . وقد وضعنا فى المحل الأول بين هذه الغرائز ، بطبيعة الحال ، تلك الغرائز التى تدفع الفرد إلى المحافظة على حياته . وكان من المحال علينا ، بما كنا قد وصلنا إليه من معرفة حينذاك ، أن ندرك أية فروق أخرى بين هذه الغرائز وتلك . ولم يكن هناك من معرفة تنفع أساساً لعلم صحيح بالنفس أكثر من وقوفنا على الخصائص العامة للغرائز ، وعلى أوجه الخلاف والتمايز بينها . غير أننا كنا فى هذه الناحية من علم النفس نتحسس خطانا فى أشد جوانبه غموضاً وأكثر مناطقه ظلاماً . فقد كان كل واحد يعدد من الغرائز أو من « الغرائز الأساسية » ما شاء ، وكان يتلاعب

(١) يفرق التحليل النفسى بين عصاب التحويل Transference Neurosis وبين العصاب النرجسى Narcissistic Neurosis . فالعصاب التحويلي هو المرض النفسى الذى تكون الأسباب فيه راجعة إلى علاقات النفس المبكرة بالموضوعات الخارجية ، أما العصاب النرجسى فهو المرض الذى يرتد فيه الليبدو ويثبت فى الداخل . ولهذا التفرقة أهمية كبيرة للتنبؤ بنجاح العلاج بالتحليل ومداه . فالأمراض النفسية التحويلية مثل الهستيريا التحولية وهستيريا القلق والجزع أيسر فى علاجها من عصاب الوسواس والإجبار الذى يكون فيه تثبت الليبدو كبيراً . وهذه وتلك أيسر من علاج العصاب النرجسى وهو ما يقابل المرض العقلى الوظيفى فى مصطلحات الطب العقلى) ، لأن مدى النكوص الارتداد النفسى فى هذه الأمراض يبلغ حداً لا يرجى كثيراً من التحليل النفسى فى أن يغير منه أو يعمل على إصلاحه .

ويعود استخدام مصطلح « عصاب التحويل » إلى أن المصابين بتلك الأمراض التى يطلق عليها هذا الاسم يشعرون نحو المعالج بضروب مختلفة من المشاعر تكون تكراراً لما مروا به أثناء الطفولة فى علاقاتهم بمن نشأوا بينهم وما اختفى فى أعماق نفوسهم نحو هؤلاء من ألوان المحبة والكراهية (المترجم) .

(٢) « الموضوع » فى مصطلحات التحليل النفسى هو الشخصى أو الشيء الذى تتجه إليه الدوافع الغريزية ، والذي يمكن أن تجد فيه هذه الدوافع ما يشبعها (المترجم) .

بها ويتحایل ، كما كان يتلاعب الطبيعيون من قدامى الفلاسفة اليونان بالعناصر الأربعة - التراب والهواء والنار والماء . وحين عجز التحليل النفسى ، عن التهرب من ضرورة وضع فرض من الفروض عن الغرائز ، التزم أول الأمر أن يأخذ بالتقسيم المألوف للغرائز الذى يتمثل فى عبارة « الجوع والحب » . وهو إذ أخذ بذلك لم يكن ، على الأقل ، متعسفاً فى رأى على أى وجه من الوجوه ؛ بل إن تحليل الأمراض النفسية قد أفاد من ذلك الفرض فائدة كبيرة ، فقطع أشواطاً بعيدة إلى الأمام . وكان لابد لذلك ، فى الواقع الأمر ، من توسعة معنى الجنس والغريزة الجنسية حتى تشمل كثيراً من الأمور التى لا تدخل فى الوظيفة التناسلية بمعنى الكلمة ، مما أثار ضجة كبيرة فى عالم يتميز باصطناع الوقار والتزمت ، إن لم يكن يتميز بالنفاق والرياء .

وتحققت الخطوة التالية حين تلمس التحليل النفسى سبيله حتى اقرب من التعرف على « الأنا » من الناحية السيكلوجية ، ذلك « الأنا » الذى لم يكن يعرف عنه ، حتى هذا الوقت ، سوى أنه منظمة تقوم بالكبت والرقابة ، وتسهر على وضع ألوان الحماية (من التزعات الغريزية) وبناء أشكال الرد عليها والوقاية منها . والحق أن كثيراً من ذوى العقول الناقدة النفاذة قد اعترضوا منذ وقت طويل على قصر فكرة الليبدو على طاقة الغرائز الجنسية التى تتجه نحو موضوع من الموضوعات . غير أنهم قد عجزوا عن بيان الحجة التى أدت بهم إلى ترجيح هذا الرأى ، أو عن أن يستمدوا منه شيئاً يمكن أن يفيد منه التحليل . على حين أن التحليل النفسى تقدم ملتزماً الحيلة والحرص فوقف على مقدار الانتظام الذى ينسحب به الليبدو من الموضوع كى يوجه إلى « الأنا » (عملية الانطواء) ؛ ووصل ، من دراسة نمو الليبدو عند الأطفال فى مراحله الأولى ، إلى أن « الأنا » هو المستودع الأصيل الصحيح

الذى يختزن فيه الليبدو ، وإلى أن الليبدو لا يصدر أو يتجه نحو الأشياء الخارجية إلا بعد خروجه من هذا المستودع ومن ثم كان « الأنا » واحداً من موضوعات الطفل الجنسية ، بل كان له المحل الأول فيما بينها . وعلى هذا الضوء أطلقنا صفة الرجسية على الليبدو الذى يكون مستقراً في « الأنا »^(١) . وكان هذا الليبدو الرجسى بالطبع مظهراً من فعل الغريزة الجنسية بالمعنى التحليلي لهذه العبارة . وكان لابد بالضرورة من التوحيد بينه وبين غرائز المحافظة على البقاء التى وقفنا على وجودها منذ أول الأمر . وهكذا تبين أن التعارض الأصيل بين غرائز « الأنا » والغرائز الجنسية تعارض ليس لدينا ما يبرره . ذلك لأنه قد اتضح أن جانباً من غرائز « الأنا » يتميز بطبيعته الشهوانية ؛ هذا إلى أن الغرائز الجنسية تكون فعالة في « الأنا » إلى جانب غيرها من الغرائز . ورغم هذا فإنه يحق لنا أن نقول إن رأى القديم الذى قلنا به من قبل ، ذلك الرأى الذى كان يقرر أن الأمراض النفسية تنأت من الصراع بين غرائز « الأنا » والغرائز الجنسية ، رأى ليس فيه ألبتة ما نحتاج إلى نبذه اليوم ، بل الأمر يقتصر على أن التفرقة بين هذين النوعين من الغرائز ، تلك التفرقة التى كانت تبدو لنا في أول الأمر متصلة بالكيف ، ينبغي اعتبارها اليوم من ناحية أخرى ألا وهى الناحية المكانية الوصفية . ولم يزل صحيحاً بصفة خاصة أن الأمراض النفسية التحويلية ، وهى لب مباحث التحليل النفسى ، إنما تنتج من الصراع الذى يقوم بين « الأنا » وبين الشحنة الشهوانية للموضوعات الخارجية .

على أنه لابد لنا الآن من الاهتمام بالصيغة الشهوانية لغرائز المحافظة على البقاء وخاصة بعد أن وقفنا على دور الغريزة الجنسية ، أو الحب ، في المحافظة

[(١) فرويد سنة ١٩١٤ : « عن الرجسية - تمهيد » الجزء الرابع من مجموعة المقالات] .

على كافة الأحياء وبعد أن رأينا أن الليبدو النرجسى الذى يلزم الأنا إنما هو مشتق من مستودعات الليبدو التى تمسك خلايا البدن وتحكم وثاق بعضها إلى بعض . إذا ما وصلنا إلى هذا وجدنا أنفسنا فجأة وقد جابهتنا مسألة جديدة . لأنه إذا ما كانت غرائز المحافظة على البقاء لها هى الأخرى طبيعة شهوانية ، ألا توجد أية غرائز أخرى غير هذه الغرائز الشهوانية ؟ الواقع أنه لا يبدو لنا ، على مدى البصر ، غير تلك الغرائز ؛ وكأننا بذلك قد ألزمنا بالتسليم بما وجهه إلينا الناقدون الذين زعموا منذ أول الأمر أن التحليل النفسى يفسر كل شئ بالميل الجنسي ، أو بالتسليم بآراء المستحدثين مثل « يونج » ، الذى تعجل بالحكم . وأخذ يستعمل مصطلح « الليبدو » كى يعنى به القوة الغريزية بصفة عامة . فما رأى فى هذا ؟

لم يكن القصد الذى نهدف إليه أن نصل البتة إلى مثل هذه النتيجة . فلقد بدأنا النظر بالتفرقة الحاسمة بين غرائز « الأنا » التى سوينها بغرائز الموت وبين الغرائز الجنسية التى سوينها بغرائز الحياة (حتى لقد كدنا فى إحدى المراحل [ص ٥٠] أن نضم غرائز « الأنا » المعروفة باسم غرائز المحافظة على البقاء إلى غرائز الموت ؛ على أننا قد عدنا بعد ذلك [ص ٥٢] وصححنا أنفسنا فعدلنا عن الرأى السابق) . ولقد كانت النظرية التى دعونا إليها نظرية اثنتية منذ أول الأمر ، ولقد أصبحت اليوم أكثر تحديداً ورسوخاً فى الاثنينية عن ذى قبل — بعد أن أخذنا نصف التعارض لا على أنه بين غرائز الأنا والغرائز الجنسية بل على أنه تعارض بين غرائز الحياة وغرائز الموت . أما نظرية « يونج » عن الليبدو فهى على النقيض من ذلك نظرية وحدانية ، ولا بد أن يؤدى الاسم الذى أطلقه على القوة الغريزية الواحدة ، وهو اسم الليبدو ، إلى اللبس ؛ لكن هذا لا يستتبع أن ننحرف

عما نحن بصددده ، بل نحن نذهب إلى أن هناك غرائز أخرى غير غرائز المحافظة على البقاء فعالة في الأنا وإلى أن من الممكن أن نثبت وجودها ، غير أن تحليل الأنا للأسف لم يخط بعد سوى خطوات قليلة مما يزيد في عسر تلك المهمة علينا ، هذا إلى أن غرائز الأنا الشهوانية قد تكون مرتبطة على وجه ما بغرائز الأنا الأخرى التي ما زلنا نجهلها . بل إن التحليل النفسي ، حتى قبل أن يصل إلى أى فهم واضح للرجسية ، كان يظن أن لغرائز الأنا مقومات شهوانية تتضمنها عناصرها . غير أن هذه كلها احتمالات غير مقطوع بها لا يعيرها خصومنا أى التفات ، وما زالت أمامنا معضلة عويصة لأن التحليل النفسي لم يمكننا حتى الآن من إثبات وجود أية غرائز أخرى غير الغرائز الشهوانية . وعلى الرغم من ذلك فليس ثمة داع للتسليم بأنه لا يوجد في واقع الأمر غيرها في النفس .

وليس من الحكمة — وسط هذا الغموض والإبهام الذي يحجب اليوم البحث في الغرائز — أن نستبعد أية فكرة ينتظر منها أن تأتي على هذه المشكلة أى بصيص من النور . لقد كانت النقطة التي بدأنا منها هي المقابلة الواضحة بين غرائز الحياة وغرائز الموت ، وإذا بنا نجد أن حب الأشياء الخارجية نفسه يواجهنا بمثال آخر فيه مثل تلك المقابلة — ألا وهي المقابلة بين الحب (أو الحنان) وبين الكراهية (أو العدوان) — وكم يكون رائعاً لو أننا وفقنا إلى الربط بين هاتين المقابلتين وإلى اشتقاق إحداها من الأخرى ، لقد اهتدينا منذ أول الأمر إلى وجود عنصر « السادية »^(١) أو القسوة في الغريزة الجنسية^(٢) ، وعرفنا أن هذه « السادية » يمكن أن تستقل بنفسها وأن تصبح

(١) السادية Sadism هي الحصول على التهيج الجنسي أو على إشباعه ، أو عليها معا . بإئزال الأذى البدني أو النفسي بشخص آخر (المترجم) .

(٢) قد أشرنا إلى ذلك في الطبعة الأولى من كتاب « ثلاث مقالات عن نظرية الميول الجنسية » [(١٩٥٥)] .

شكلا من أشكال الانحراف ، فتسيطر على الحياة الجنسية للفرد بأكملها ؛ كما أنها تظهر على شكل غريزة فرعية غالبة في إحدى المراحل التي أطلقت عليها المراحل « السابقة للتناسل » . لكن كيف يمكن أن تكون الغريزة « السادية » التي تهدف إلى إيقاع الأذى بالموضوع مشتقة من غريزة الحب التي تهدف إلى المحافظة على الحياة ؟ ألا يمكن أن نذهب إلى الظن بأن هذه « السادية » ليست في الواقع إلا غريزة الموت التي أرغمت ، بتأثير الليبدو الرجسى على الخروج من « الأنا » متجهة نحو الموضوع ؟ وهى بذلك إنما تعمل على خدمة الوظيفة الجنسية ؟ ذلك أنه في المرحلة الفمية^(١) من تنظيم الليبدو يلزم العمل ، في سبيل الحصول على اللذة من الموضوع ، العمل على تحطيم هذا الموضوع ؛ ثم تنفصل الغريزة « السادية » بعد ذلك حتى تنتهى ، في مرحلة الأسبقية التناسلية ، إلى القيام بوظيفة التغلب على الموضوع الجنسي إلى الحد اللازم لتنفيذ العملية الجنسية في سبيل القيام بالتناسل . بل إنه يمكن القول بأن « السادية » التي أرغمت على الخروج من الأنا قد عادت الطريق أمام العناصر الشهوانية للغريزة الجنسية حتى أصبحت هذه العناصر تقف في هذا السبيل خطوات تلك . ومن ثم كنا نجد التعارض المألوف بين الحب والكراهية في الحياة الشهوية حيثما وجدت « السادية » الأصلية خالصة غير مخففة .

فإذا أمكن القول بمثل هذا الفرض ، لم نعد في حاجة إلى البحث عن مثل آخر لغريزة الموت - رغم أن الواقع أن هذا المثل الذي ذكرناه مثل قد انحرف عن موضعه قليلا . على أن هذا الأسلوب ، الذي اتخذناه من أساليب

(١) يمكن الرجوع إلى الباب الخاص ببيكولوجيا فرويد في كتابنا علم النفس الفردي (دارالمعارف الطبعة الثانية ١٩٥٢) لاستيضاح مراحل نمو الميول الجنسية (المترجم) .

النظر ، بعيد كل البعد عن متناول الفهم الميسور ، إلى جانب ما يثيره من شبهة غيبية مغرقة في الإبهام والغموض ، حتى ليلوح كأننا كنا نلتمس الخروج من مأزق شديد الحرج بأى ثمن من الأثمان . بيد أننا نستطيع عند ذلك أن نؤكد أن الغرض الذى ذهبنا إليه ليس جديداً على أى وجه من الوجوه ، فلقد قلنا بمثله سلفاً . قبل أن تضيق بنا الحيل أو يقسرنا الموقف . ولقد هدتنا المشاهدات الإكلينيكية ، فى ذلك العهد ، إلى أن نقرر أن « الماسوكية » ، وهى الغريزة الفرعية المكملة للسادية ، ينبغى أن تعتبر « سادية » ارتدت وكرت راجعة على « ذات » صاحبها^(١) . على أن الجديد الذى نحن بصددده اليوم هو : أنه لا فرق فى المبدأ بين اتجاه الغريزة من الموضوع إلى الأنا ، وبين اتجاهها من الأنا نحو الموضوع . فالماسوكية ، وهى ارتداد الغريزة إلى « ذات » الشخص ، تبدو فى الواقع رجعة إلى إحدى المراحل المبكرة فى النمو الغريزى ، أى انتكاساً أو نكوصاً . لهذا يبدو لى اليوم أن الآراء التى ذكرتها قديماً عن الماسوكية كانت مسرفة يعوزها الضبط والتصحيح : وهو أن الماسوكية يمكن أن تكون أمراً أولياً أصيلاً - وهذا احتمال عارضت إمكان صحته من قبل^(٢) .

دعنا نرجع ، مع ذلك ، إلى الغرائز الجنسية وعملها فى سبيل المحافظة على الحياة . لقد أثبتت لنا التجارب التى أجريت على الكائنات المفردة

[(١) انظر فرويد (١٩٠٥) وفرويد (١٩١٥)] .

[(٢) سبقنى فى جانب كبير من هذه التأملات سابينا ، شيرلين (١٩١٢) فى مقال حافل تمتع . غير أنى للأسف لم أستطع فهمه كل الفهم . وفى هذا المقال تصف شيرلين العناصر المادية فى الغريزة الجنسية بأنها « هدامة » . هذا على أن شاركة (١٩١٤) قد حاول ، أيضاً ، أن يوجد بين فكرة اللبدو نفسها وبين الفكرة السيكلولوجية (القائمة على اعتبارات نظرية) التى تقول بوجود دافع نحو الموت . انظر أيضاً رانك (١٩٠٧) . وكل هذه البحوث ، مثلها مثل ما نحن بصددده فى سائر هذا الكتاب ، تثبت شدة الحاجة إلى توضيح نظرية الغرائز توضيحاً لم يتحقق حتى اليوم] .

الخلية أن اندماج كائنين - أى انضمام فردين ينفصلان بعد ذلك دون أن يتبع هذا انقسام في الخلية - أمر يبعث القوة ويعيد الشباب إلى كل منهما ^(١). ولا يبدو عليها في الأجيال اللاحقة بعد ذلك أية دلالة من دلائل الانحلال ، كما بلوح أنها تصبح أكثر قدرة على إطالة المقاومة ضد ألوان الأذى التي تنأت مما يجرى بداخلها من عمليات « الهدم والبناء » . إنه ليخيل إلى أن هذه الحقيقة المعروفة يمكن أن تكون مثالا لما يترتب على الاتحاد الجنسي أيضاً . لكن كيف يتأتى أن يؤدي اتحاد خليتين ، لا تختلف الواحدة عن الأخرى سوى اختلاف يسير ، إلى مثل هذا التجديد في الحياة ؟ إن التجارب التي أجريت للاستغناء عن اندماج الحويصلات الحية (البروتوزوا) باستخدام المثبرات الكيماوية بل الميكانيكية (انظر لبشوتز ، ١٩١٤) لتمكنا من الوصول إلى إجابة حاسمة لاشك فيها عن ذلك السؤال : هي أن تلك الحيوية الجديدة تترتب على تدفق مقادير جديدة من الاستثارة . ويتفق هذا القول اتفاقاً تاماً والفرص الذي يقول بأن عملية الحياة في الفرد تؤدي به ، لأسباب داخلية ، إلى العمل على معادلة ألوان التوتر الكيماوي فيه ، أو بعبارة أخرى ، إلى الموت ؛ على حين أنه إذا اتحد والمادة الحية لكائن آخر أدى هذا الاتحاد إلى زيادة تلك الألوان من التوتر ، مما يستتبع ما يمكن أن يسمى « اختلافات حيوية » لا بد من العيش وقتاً آخر حتى يمكن الإجهاز عليها . ولا بد أن يكون لهذه الاختلافات ، بالطبع ، حد أنسب أو حدود مناسبة كي يؤدي الاتحاد بين الخليتين غايته من تجديد الحياة وإطالتها . ومن هذا أيضاً ما نعرفه من أن النزعة الغالبة في الحياة النفسية ، بل لعلها في الحياة العصبية بصفة عامة . هي العمل على خفض التوتر الداخلي الذي يترتب على فعل

[(١) انظر ما ذكرناه عن هذا من قبل حين كنا نتحدث عن أبحاث لبشوتز (١٩١٤)] .

المثيرات أو العمل على التخلص منه والتزام الثبات والسكون (وذلك هو مبدأ « النرفانا » الذى اقترحت اسمه بربارا لو^(١) ١٩٢٠) - وتلك نزعة ينضمها مبدأ اللذة ؛ كما أن إدراكنا لهذه الحقيقة هو أهم الأسباب التى تدعونا إلى الإيمان بوجود غرائز الموت .

على أنا مازلنا نشعر أن الذى يضعف ما قدمناه من حجة ، إلى حد كبير ، هو أننا لا نستطيع أن ننسب إلى الغرائز الجنسية وجود إجبار للتكرار فيها ، وهو الإجبار الذى قاد خطانا أول الأمر إلى غرائز الموت . فليس من شك أن ميدان نمو الأجنة مفعم بمثل تلك الظاهرات - ظاهرات التكرار الإجبارى ؛ بل إن اجتماع خليتين من أجل التناسل الجنسى ويجرى الحياة الذى يسلكانه ، كل ذلك فى واقع الأمر ليس إلا أمورا تتكرر حتما كما وقعت منذ مطالع الحياة العضوية . غير أن لب العمليات التى تهدف إليها الحياة الجنسية هو الجمع بين خليتين من خلايا الحياة . فإن هذا وحده هو ما يضمن تواصل الحياة فى الكائنات الحية العليا فى سلم التطور .

أى أنه يعوزنا ، بعبارة أخرى ، أن تزيد معارفنا عن أصل التناسل الجنسى وعن الغرائز الجنسية بصفة عامة . فهذه مشكلة تستعصى على أفهام الناس ، بل إن الإخصائيين أنفسهم لم يوفقوا حتى الآن إلى حل لها . ومن

(١) بربارا لو Barbara Low إحدى المشتغلات بالتحليل النفسى فى إنجلترا. ويشير هنا فرويد إلى ما ذكرته عن النرفانا فى كتابها Psycho-Analysis المنشور ١٩٢٠ .

والنرفانا Nirvana فكرة مأخوذة عن الفلسفة البوذية التى نشأت فى بلاد الهند، ويقصد بها الحالة التى يصل إليها الإنسان بعد خلاصه من كل ألم . وقد ورد عن بوذا قوله إن النرفانا ليست هى الكينونة ولا اللاكينونة وإنما هى إطفاء الشهوات .

ولقد كانت النيرفانا فى مبدأ الديانة البوذية غاية لا يصل إليها إلا الشخص الذى مات . لكن أتباع هذه الديانة أضافوا بعد ذلك إلى أن المرء يستطيع أن يظفر بالنيرفانا فى هذه الحياة إذا كان قد أنفج فى إطفاء ما بنفسه من الأهواء والشهوات (المترجم) .

ثم لن نورد فيما يلي سوى أقصر موجز عما يبدو ذا صلة بما نحن بصدد من حشد الفروض والآراء والنظريات المختلفة عن هذا الموضوع .

يحرم أحد هذه الآراء مسألة التناسل مما لها من روعة وخفاء إذ يعرضها على أنها جانب من مظاهر النمو (انظر التكاثر من طريق الانقسام والتبرعم) ، ويمكن تصور أصل التناسل عن طريق الخلايا المختلفة الجنس على ضوء المعقول من آراء « داروين » بأن نفرض أن فائدة الاتحاد الجنسي ، الذي وصل إليه الكائن في وقت ما عن طريق الصدفة نتيجة لاندماج خليتين ، قد أمكن الاحتفاظ به ومداومة استغلاله في مراحل التطور التالية (١) . وعلى ضوء هذا الرأي لا يكون « الجنس » أمراً عريقاً في القدم ، وتكون الغرائز القوية العنيفة التي تهدف إلى الجمع بين الجنسين تكراراً لأمر حدث يوماً عن طريق الصدفة ثم بقي واستقر لما تبين من نفعه وجدواه .

غير أنه لا بد من التساؤل هنا ، كما فعلنا عند الحديث عن الموت ، عما إذا كان يحق لنا أن ننسب إلى الخلايا الأولية تلك الخصائص التي تتميز بها فعلاً ، وعما إذا كان من الصواب أن نذهب إلى أن القوى والعمليات التي لم تظهر واضحة إلا في الحيوانات العليا قد نشأت أصلاً في تلك الخلايا الأولية . وفي هذا لا يجدى علينا الرأي الذي أسلفنا الإشارة إليه خاصاً بالفروق الجنسية ، إذا يمكن أن يعترض عليه بأنه يفرض وجود غرائز الحياة فعالة في أبسط الكائنات الحية ، وإلا لما أمكن الاحتفاظ بالقدرة على الاندماج وعلى تقدمها بل لوجب العمل على تجنبها مع أنها تعترض مجرى

[(١) ذلك غلى الرغم من أن وايزمان (١٩٢٨) ينكر هذه الميزة أيضاً فيقول :

« إن الإخصاب لا يؤدي - في أي حال - إلى إعادة الشباب أو تجديد الحياة وليس وقوعه ضرورياً للإبقاء على الحياة ، وإنما هو وسيلة للمزج بين عنصرين مختلفين من عناصر الوراثة » . لكنه مع ذلك يعتقد أن المزج على هذا المتوال يؤدي إلى زيادة فيما يطرأ على الكائن الحي من تغير [.

الحياة وتزيد في عسر الوصول إلى نهايتها . فإذا كنا لا نود استبعاد الفرض الذى يقول بوجود غرائز الموت وجب أن نذهب إلى أنها كانت ملازمة منذ أول الأمر لغرائز الحياة . غير أنه ينبغى أن نسلم في هذه الحال بأننا نستخدم معادلة ذات طرفين مجهولين .

وبغض النظر عن هذا ، فإن ما وصل إليه العلم عن أصل الفروق الجنسية ليس إلا نذراً يسيراً ؛ حتى لكأننا ما زلنا ، بصدد هذا الأمر ، في ظلمة لم يتيسر لأى فرض أن يخترقها أو يلقى عليها بصيصاً من الضوء . لكن الواقع أننا نظفر بمثل هذا الفرض في ميدان يختلف كل الاختلاف عن هذا الميدان ، ولكنه فرض عجيب — هو أسطورة أكثر منه تفسيراً علمياً — ويبلغ من الإسراف حدّاً لم أكن أجروء معه على ذكره هنا لو أنه لم يكن ينبى تماماً بالشرط الوحيد الذى نعمل على استيفائه : ذلك أنه يرد أصل الغريزة إلى الحاجة لإعادة الأمور إلى أحوالها السابقة الأولى .

إن ما يدور بخلدى ، بالطبع ، إنما هى النظرية التى وضعها أفلاطون بين شفاه أرسطوفانيس في كتاب «المأدبة» ، وهى النظرية التى لاتعالج أصل الغريزة الجنسية فحسب ، بل تعرض أيضاً لأهم أشكالها فيما له صلة بالموضوع الذى تنصرف إليه إذ يقول :

« إن طبيعة الإنسان الأصيلة لم تكن كما هى الآن ، بل كانت مختلفة جد الاختلاف عما هى عليه فى الحاضر : فقد كان الناس أول كل شيء ينقسمون إلى ثلاثة أجناس ، لا إلى اثنين كما هم الآن ؛ كان هناك جنس الرجال و جنس النساء و جنس ثالث يجمع بين خصائص الأنثى وخصائص الذكر » . وكان كل شيء مزدوجاً فى هذه المخلوقات البدائية ، كان لكل منها أربع أيد وأربع أقدام ، ووجهان ، وعورتان . . . إلخ ، حتى

قرر الإله زيوس يوماً أن يشطر هذه المخلوقات شطرين « كما تشطر اللقطة قبل تخليلها » . . . لكنه وقع بعد هذا التقسيم « أن كل شطر من الشطرين كان يشتمل نصفه الآخر ، وكانا إذا ما التقيا التفت الأذرع منهما حول بعضهما بعضاً وتعانقا عناقاً عنيفاً قوياً كي يستعيدا وحدتهما ، وكان العناق يطول حتى لقد كانا يتركان أنفسهما على هذه الحال حتى يموتا من الجوع والسكون ، لأن كل نصف كان يعاف كل شيء لا يشاركه فيه النصف الآخر » (١) .

فهل لنا أن نتابع اللقحة التي قدمها لنا الشاعر الفيلسوف ، وأن نخاطر بالقول إن المادة الحية — التي كانت واحدة غير منقسمة قبل أن تنفخ فيها الحياة — قد تقطعت أوصالها باستقبالها هذه النسمات فانقسمت إلى جزئيات

[(١) إنى للمدين للأستاذ هينرخ جومبرتز من فينا بما يأتي خاصاً بأصل الأسطورة التي ذكرها أفلاطون . وهأنا أورد فيما يلي جانباً مما حدثني به بنصه تقريباً . مما يسترعى النظر أن لب هذه الفكرة كان يوجد في كتب « الأوبانيشاد » (أحد كتب الهند المقدسة) . إذ أننا نجد العبارات الآتية في كتاب « بريهادارنياكا أوبانيشاد » حيث يوصف منشأ العالم من عمان (الذات أو الأنا) : « لكنه لم يكن يشعر بأى جذل أو سرور . ذلك لأن المرء الوحيد المنعزل لا يداخله أى سرور أو سعادة . فاشتهى أن يكون له ثان ، فقد كان في الواقع ضحماً لأنه كان يجمع في نفسه بين الرجل وامرأته . فقرر أن يقسم نفسه قسمين ومن هذا خلق الزوج وزوجته . ولهذا قال يا جنتا فلقيا : « هذا هو السبب في أن كلا منا يشبه نصف قوقعة لأن الفراخ الذي يحدث تملؤه الزوجة » .

وكتاب « بريها دارانياكا أوبانيشاد » هو أقدم الأوبانيشاد كافة ، ولا يرجع تاريخه أى باحث ثقة إلى ما بعد عام ٨٠٠ قبل الميلاد . وإنى ، على النقيض من رأى الشائع ، أميل إلى القول بأن أفلاطون قد تأثر ، ولو عن طريق غير مباشر ، بتلك الأفكار الهندية ؛ ويؤيدنى في هذا أنه ليس هناك شك في تأثره بالهند فيما يختص بفكرة التناسخ . غير أن التسليم بتأثير أفلاطون من هذه الناحية ، خلال الفيثاغوريين ، لا يننى أن تفكير أفلاطون وتفكير فلاسفة الهند قد تلاقيا ، وأن لهذا اللون من التلاقى منزاه . ذلك لأن أفلاطون لم يكن ليؤمن بتلك الأسطورة التي وصلت إليه من الشرق ، فاهيك باهتمامه بها ، إلا إذا كانت قد اجتذبت به لاج فيها من عناصر الحق والصحة .

وفي مقال ينصرف إلى البحث في أصل تلك الفكرة التي نحن بصدددها وفي تطورها التاريخي قبل أفلاطون ، يرد تسيجلر (١٩١٣) أصولها إلى أهل بابل .]

صغيرة تتوق منذ ذلك الحين إلى الاتحاد بعضها مع بعض بدافع الغرائز الجنسية ؟ وإن هذه الغرائز ، التي تبقى خلالها التجاذب الكيماوى للمادة الجامدة ، نجحت شيئاً فشيئاً أثناء تطورها في عالم الخلايا الحية في التغلب على العقبات التي كانت تعوق سبيلها في البيئة المفعمة بألوان المثيرات الخطيرة - هذه المثيرات التي أرغمت تلك الخلايا على أن تكون لنفسها لحاء خارجياً واقعياً ؟ وإن هذه الجزئيات المنفصلة من المادة الحية وصلت ، عن هذا السبيل ، إلى التجمع في كائنات كثيرة الخلايا ، وانتهى بها الأمر أخيراً إلى نقل غريزة العودة إلى الاتحاد ، في أعلى أشكالها وأكثرها تركيزاً ، إلى الخلايا التناسلية ؟ - لكننا إذا ما وصلينا إلى هذا ، فقد حان الوقت عندي ، للاكتفاء بهذه الأسئلة وللوقوف عند هذا الحد .

غير أني رغم هذا أود أن أضيف بضع كلمات على سبيل النقد والتعقيب . فلقد يسأل سائل إلى أى حد وصل اقتناعي أنا بصحة الفروض التي ذهبت إليها في الصفحات السالفة . وعن هذا أجيب بأنني أنا نفسي غير مقتنع ، وأني لا أعمل على إغراء غيري من الناس بالإيمان بتلك النظريات . أو ، بعبارة أدق ، إنني لا أدري إلى أى حد يبلغ يقيني منها . ويخيل إلى أنه ليس هناك من سبب لتدخل العامل الوجداني في هذه المسألة على الإطلاق . إذ من الممكن طبعاً أن يدفع المرء وراء لون من ألوان التفكير والتأمل ، وأن يداوم متابعته حينما يؤدي به بدافع التطلع العلمى الخالص ؛ أو ، إن أراد القارئ وأثر ذلك ؛ قلنا له إنا في هذا كمن ينقل الكفر و « ناقل الكفر ليس بكافر » . ولست أنكر أن الخطوة الثالثة في نظرية الغرائز ، هذه الخطوة التي ذهبت إليها في هذا الكتاب ، لا يمكن أن تزعم لنفسها من الصحة واليقين ما لسابقتها - وهما توسعة معنى الجنس ، وتقرير وجود النرجسية . ذلك لأن

هاتين النظريتين كانتا ترجمة مباشرة من عالم المشاهد إلى عالم النظر ونقلًا مضبوطاً من الملاحظ إلى المعقول ؛ ولم يكن فيهما من احتمالات الخطأ إلا ما لا يمكن تجنبه في مثل هذه الأحوال .

والحق أن أقوالى عن صفة الغرائز الارتدادية أيضاً تقوم على الوقائع الملموسة المشاهدة - أى على ما لمسه من إجبار التكرار - ورغم هذا فربما نكون قد أسرفنا في تقدير ما لهذا الظواهرات من دلالة . وعلى أية حال فإنه من الصعب أن نتابع فكرة من هذا النوع إلا إذا عاودنا ربط المشاهدات الواقعية بألوان النظر المجردة ، وإذا نحن على هذا النحو قد بعدنا كثيراً عن الملاحظة المباشرة . وكلما كثر هذا أثناء صياغة إحدى النظريات وتكوينها كانت النتيجة النهائية كما نعرف متهافئة لا يطمئن إليها العقل - غير أن مقدار الخطر هنا لا يمكن التحقق منه ، فقد يأتى صاحبها حسن الطالع فيقع على الحق أو هو قد يغرق في الخطأ إغراقاً معيناً . ولست أعلق أهمية كبيرة ، في مثل المهمة التى نحن بصدددها ، على الدور الذى يقوم به ما يسمى « بالحدس » أو « بالبصيرة » ؛ لأن ما وقعت عليه منه يبدو لى على الأرجح نتيجة لنوع من أنواع الحياد العقلى . غير أن الناس للأسف نادراً ما يلتزمون الحياد فيما يتصل بجلائل الأمور وفيما يدور حول المشكلات الكبرى فى العلم والحياة . إذ تتحكم فى كل منا فى هذه الأحوال أفكار سابقة وأهواء عميقة متغلغلة الجذور تعبت بتفكيره دون فطنة منه . فإذا كان لدينا تلك المبررات القوية لما يراودنا من الريبة والشك ، وجب أن نتخذ نحو نتائج تلك التأملات موقف الرفق والإنصاف . على أنى أسارع فأضيف إلى هذا أن نقد المرء لنفسه ، على هذا المنوال ، يحتم عليه أن يغرق فى التسامح بإزاء الآراء المخالفة ، إذ يحق للمرء كل الحق أن ينبذ ، دون أسف ، تلك النظريات التى تنفيها

بسائط الوقائع المشاهدة ، وهو في نفس الوقت يدرك أن صحة نظريته ليست أمراً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولا ينبغي أن نشفق كثيراً عند الحكم على ما ذهبنا إليه فيما يتعلق بغرائز الحياة والموت لأنها تنطوي على كثير من العمليات الخفية المحيرة — كأن تطرد غريزة غريزة أخرى ، أو كأن تتحول غريزة من الأنا إلى أحد الموضوعات ، وما إلى ذلك . إذ لا يعود ذلك إلا إلى ما نحن ملزمون به من استخدام المصطلحات العلمية ، أي استخدام اللغة التشبيهية الخاصة بعلم النفس (أو بعبارة ، أدق ، الخاصة بعلم نفس الأعماق) ، لأننا دون ذلك لم نكن لنستطيع أن نصف العمليات التي نحن بصدها على الإطلاق ، بل لم نكن لنستطيع أن نفطن إليها . وقد تتلاشى النقائص التي تشوب ما قدمناه من عرض لو أنه كان قد أتيج لنا أن نستبدل بالعبارات السيكولوجية عبارات فسيولوجية أو كيمائية . ورغم أن هذه العبارات هي الأخرى ليست إلا جانباً من لغة التشبيه غير أنها لغة طالما ألفناها ، ولعلها تفضل تلك في البساطة والوضوح .

وينبغي من الناحية الأخرى أن نقرر في جلاء ووضوح أن عدم التأكد من النظرية التي دعونا إليها قد ازداد زيادة كبيرة ، لأنه كان لابد لنا أن نستعير كثيراً من علم الأحياء . فالحق أن علم الأحياء ميدان مليء بالإمكانات وهو علم خلاق بنا أن نتظر منه أن يهدينا إلى ما سوف يثير كثيراً من الدهشة والعجب ، بل إننا لنعجز عن تصور ما سوف يدلى به إلينا — بعد بضع عشرات من السنين — من إجابات عن المسائل التي أسلفنا الإشارة إليها . وقد تكون هذه الإجابات من نوع يهدم كل مذهبنا إليه من فروض ، ورب قائل يقول : إذا كان الأمر كذلك فلم تابعت مثل هذا اللون من التفكير ، بل لم قررت أن تنشره على الناس ؟ الحق أني لا أستطيع أن أنكر أن بعض

ما عثرت عليه من صور التشابه والارتباط والصلات يلوح لى خليقاً بالنظر وإعمال النفس^(١).

[(١) أود أن أضيف كلمة قصيرة لإيضاح الاصطلاحات التي نستخدمها ، ذلك لأنها قد تطورت نوعاً ما نتيجة للاعتبارات التي ذكرتها آنفاً . فقد استطعنا أن نعرف ماهية الغرائز الجنسية من صلاتها الجنسية وعلاقتها بوظيفة التنازل . واستمسكنا بهذا الاسم بعد أن ألزمتنا كشوف التحليل النفسي أن ننقص من الربط بينها وبين التنازل ربطاً شديداً . حتى إذا ما انتبهنا إلى الليبدو الرجسى وإلى توسعة فكرة الليبدو حتى شملت الخلايا المفردة انتقلنا من الغريزة الجنسية إلى الحب ، الذي يعمل على أن يضم ويمسك أجزاء المادة الحقة بعضها إلى بعض أما ما يفهمه العامة من الغرائز الجنسية فإنما هو في رأينا جانب من الحب الذي يتجه نحو الموضوعات الخارجية ، وقد وصلنا من تأملاتنا إلى أن الحب كان يفعل فعله منذ بدء الحياة وإلى أنه يبدو كغريزة للحياة مقابل غريزة الموت التي نشأت منذ أن نفخت الحياة في المادة الجاهدة . وقد كنا نلتبس من هذه التأملات حلاً لألغاز الحياة فذهبنا إلى أن هاتين الغريزتين كانتا تصطرعان منذ بدء الخليقة. غير أنه قد لا يكون من اليسير أن نتابع التحولات التي مرت بها فكرتنا عن غرائز الأنا . فقد أطلقنا هذا الاسم في أول الأمر على كافة النزعات الغريزية التي أمكن التفرقة بينها وبين الغرائز الجنسية التي تنصرف نحو موضوع خارجي ؛ وهكذا عقدنا مقابلة بين غرائز الأنا والغرائز الجنسية التي تظهر على شكل لبيدو . ثم أتيح لنا بعد ذلك أن نتمق في تحليل الأنا فوقفنا على أن جانباً من غرائز الأنا له هو الآخر صبغة شهوية وأنه قد اتخذ ذات الشخص موضوعاً له . ومنذ ذلك الحين صرنا نضع الغرائز الرجسية ، التي تعمل في سبيل المحافظة على الذات، ضمن الغرائز الجنسية الشهوية . ومن ثم تحولت المقابلة بين غرائز الأنا والغرائز الجنسية إلى مقابلة بين غرائز الأنا وغرائز الموضوع وكلاهما ذو طبيعة شهوية . على أنه قد قامت محل هذه مقابلة جديدة بين الغرائز الشهوية (غرائز الأنا والموضوع) وبين غيرها من الغرائز التي لا يد من القسول بوجودها في أنا والتي يمكن في الواقع أن نمثر عليها في ثنايا الغرائز الهدامة . حتى أدت بنا التأملات آخر الأمر إلى تحويل هذه المقابلة إلى مقابلة بين غرائز الحياة (الحب) وبين غرائز الموت] .

الفصل السابع

إذا كانت الغرائز حقاً تسعى أبداً إلى إعادة الأمور إلى ما كانت عليه ، لم يكن هناك ما يدعو إلى العجب من أن ثمة كثيراً من العمليات التي تجري في الحياة النفسية مستقلة عن مبدأ اللذة . وهذه خاصة تتقاسمها كافة الغرائز الفرعية فتهدف إلى العودة مرة أخرى إلى مراحل خاصة من مرحلة التطور السابق . وهذه كلها أمور لا حكم لمبدأ اللذة عليها ؛ غير أنه لا يتأتى من هذا أن واحدة من تلك الغرائز تعارض بالضرورة مبدأ اللذة ، ومن ثم كان علينا أن نلتمس حلاً لمشكلة العلاقة بين عمليات التكرار الغريزية وبين سيطرة مبدأ اللذة .

لقد وجدنا أن إحدى وظائف الجهاز النفسي المبكرة وأكثرها أهمية هي « تقييد » الدوافع التي تنشب فيه ، وأن تستبدل بالعملية الأولية التي تسود تلك الدوافع العملية الثانوية ، وأن تحول الشحنة الطليقة إلى الشحنة كامنة . فإذا ما كانت النفس بصدد هذا التحويل لم تحفل بما قد يطرأ من عدم اللذة ؛ غير أن هذا لا يتضمن وقف العمل بمبدأ اللذة . بل الأمر على النقيض من ذلك لأن التحويل يتم خدمة لمبدأ اللذة ؛ ذلك لأن التقييد عمل مبدئي يمهّد السبيل لسيطرة مبدأ اللذة وتوكيدها .

دعنا نلتمس تفرقة أدق مما وصلنا إليه حتى الآن بين الوظيفة والنزعة . فمبدأ اللذة إذاً ، هونزعة تعمل في خدمة وظيفة وهذه الوظيفة تهدف إلى تحرير الجهاز

النفسي تحريراً تاماً من الاستشارة أو إلى الإبقاء على مقدار الاستشارة ثابتاً أو الاحتفاظ به في أقل مستوى ممكن . وليس لدينا حتى الآن ما ينحولنا أن نحسم الأمر فنفاضل بين أى من هذه الاحتمالات ؛ غير أنه من الواضح أن الوظيفة التي وصفناها على هذا النحو تعمل في سبيل القيام بأشمل نزعة لكل مادة حية - ألا وهي العودة إلى سكون عالم الجماد . ولقد عرفنا جميعاً كيف أن أقصى ألوان اللذة التي يمكن أن نصل إليها ، وهي لذة العملية الجنسية ، يصطبغ بانطفاء مفاجئ لأشد أنواع الاستشارة حدة . فكأن تقييد الدافع الغريزي يكون وظيفة مبدئية تعمل على إعداد الاستشارة لنبذها نهائياً في لذة التخلص .

وهنا محل للتساؤل عما إذا كانت مشاعر اللذة وعدم اللذة يمكن أن تصدر عن عملية الاستشارة المقيدة والحرة على السواء ؛ فيبدو أنه ليس من شك على الإطلاق في أن العمليات الطليقة أو الأولية تؤدي إلى ألوان من المشاعر أكثر حدة من كلا الناحيتين (اللذة وعدم اللذة) عما تؤدي إليه العمليات المقيدة أو الثانوية ، أضف إلى هذا أن العمليات الأولية هي السابقة في الزمن ؛ ففي مبدأ الحياة النفسية لا يوجد سواها شيء ، ومن هذا يمكن أن نستنتج أن مبدأ اللذة إذا لم يكن مسيطراً عليها لم يمكن ألبة أن يفعل فعله فيما يليها من العمليات . وهكذا نصل إلى نتيجة ليست في صميمها من البساطة في شيء ، ألا وهي أنه في بدء الحياة النفسية كان الكفاح في سبيل اللذة أعنف بكثير مما أصبح عليه فيما بعد ، لكنه لم يكن مطلقاً كما هو الآن : إذ كان يخضع لكثير موالوان التوقف وصنوف العقبات . وأصبحت سيادة مبدأ اللذة فيما تلا ذلك من عصور أكثر رسوخاً واستقراراً ، غير أن هذه السيادة نفسها لم تفلت من عملية الاستثناس والترويض أكثر مما

أفلت غيرها من الغرائز بصفة عامة . وعلى أية حال ، فهما يكن ما يؤدي إلى ظهور مشاعر اللذة وعدم اللذة في عمليات الاستشارة ، فإنه ينبغي أن يكون موجوداً في العملية الثانوية مثل وجوده في العملية الأولية . وهنا نقطة للبدء في استقصاء جديد . ذلك لأن الشعور ينقل إلينا مشاعر من الداخل لا تقتصر على اللذة أو عدم اللذة ، بل تحتوى أيضاً على لون خاص من التوتر يتصف بدوره باللذة أو عدم اللذة . أتري نستطيع من الفرق بين هذه المشاعر أن نميز بين عمليات الطاقة المقيدة والطيقة ؟ أم أنه يمكن أن نربط بين الشعور بالتوتر وبين الحد الأعلى ، أو ربما مستوى الشحنة ، على حين أن درجات اللذة وعدم اللذة تشير إلى تغير في مقدار الشحنة في خلال وقت معين ؟ ومن الحقائق الأخرى التي تسترعى النظر أن لغرائز الحياة كثيراً من الأواصر بإدراكنا الداخلي ، تعمل على تكدير صفو الحال وتؤدي أبدأ إلى أنواع من التوتر نشعر باللذة عند التخلص منها ، بينما تبدو غرائز الموت كأنها تعمل دون أن يعترض سبيلها شيء ؛ حتى ليلوح أن مبدأ اللذة في الواقع يعمل في خدمة غرائز الموت . فالحق أنه يقوم بمراقبة المثيرات التي تفد من العالم الخارجى ، تلك المثيرات التي تعتبر خطراً على كل من نوعي الغرائز ؛ على أنه يقوم بصفة خاصة بمراقبة أية زيادة في الاستشارة من الداخل ، لأنها تؤدي إلى زيادة مهمة الحياة عسراً وصعوبة . ويؤدي هذا بدوره إلى إثارة كثير من ألوان التساؤل لسنا اليوم على قدر من المعرفة يتيح لنا الإجابة عنها . بل ينبغي أن نعتصم بالصبر ، وأن ننتظر الوصول إلى طرائق وظروف جديدة للبحث . كما ينبغي أيضاً أن نكون على أهبة للتخلي عن السبيل الذي سلكناه وقتاً ما ، إذا لاح لنا أنه لا يؤدي بنا إلى الغاية المرجوة . ولن يلقى باللوم والتثريب على باحث قد تطورت آراؤه ، بل تغيرت ، إلا من يعتقدون أن العلم

ينبغي أن يحل محل ما كانوا يؤمنون به ، وأن يسد نفوسهم فراغ العقيدة التي
تخلوا عنها - ويمكن إلى جانب هذا أن نلتمس العزاء في بطء التقدم الذي
وصلت إليه معارفنا العلمية من قول الشاعر :

تعارجتُ لا رغبة في العرجُ ولكن لأطراق باب الفرجُ
وألقى حبلِي على غاربي وأسلك مسلك من قد مرج
فإن لا مني القوم قلت اعذروا فليس على أعرج من حرج^(١)

(١) ختم فرويد كتابه بترجمة هذه الأبيات من المقامة الثالثة من مقامات الحريري التي نقلها
المستشرق روكرت إلى الألمانية .

فهرس

الأنا	إجبار الكرار
١٠٣ تحليل الأنا	٤٨ ولعب الأطفال
٩١ ، ٨٩ واليبدو	٦٢ ، ٤٨ والأحلام
٤٨ ، ٤٢ والكبت	٧٩ ، ٧٨ وغرائز الأنا
٨٧ ، ٧٩ ، ٧٨ والغرائز الجنسية	١٠١ ارتداد ونكوص الغرائز
٨٩ ، ٨٨ والصراع	٦٨ ، ٤٥ ، ٤٣ ، ٤١ في التحليل
٦٣ الشعور واللاشعور	٤٦ ، ٤٥ في الأسوياء
٤٢ ما قبل الشعور	٦٨ - ٦٧ ، ٦٦ ، ٤٨ مظاهره الغريزية
٤٢	٤٣ علاقته بمبدأ اللذة

ب	الاستشارة
٨١ ، ٧٨ ، ٧٣ بقايا خلايا اللقاح	٦٣ والاضطراب الآلي
٨٥ - ٨٢ بقايا الكائنات وحيدة الخلية	٥٧ ، ٥٣ ، ٥٢ ، ٥٠ ومنظمة الشعور
	٥٨ ، ٥٧ من الداخل ومن الخارج
	٥٤ مسالكها
	٢٦ ، ٢٤ كية الاستشارة
	٥٨ نتيجة للصحة

ت	الإسقاط ، أصله
٩٣ ، ٩٢ تعارض المشاعر	٥٨
	٦٤ ، ٦٣ ، ٣٢ الإصابة البدنية والصحة
٨٥ - ٨٢ والموت	٥٥ أعضاء الحس والمثيرات الخارجية
٩٩ - ٩٦ أصل التناسل	
١٠٥ التوتو	٦٠ ، ٥٩ الألم البدني

ح

الحلم

أحلام الجزع

وظيفة الحلم

في عصاب الصدمة

والعقاب

وتحقيق الرغبة

خ

الخوف والجزع والرعب

ذ

الذاكرة

أصلها

علاقتها بالشعور

ر

الرعب

تعريفه

علاقته بعصاب الصدمة

ز

الزمان

والمكان - نظرية كانط

واللاشعور

ش

الشحنة

والصدمة

الطليقة

المقيدة ٥٤ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ١٠٤

الشعور

والذاكرة

منظمة الشعور والإدراك

أصل الشعور

الشعور الإدراكي

مركز الشعور

ص

الصادية

الصدمة

والشحنة

الخارجية

التثبيت على الصدمة

ع

عصاب الصدمة

عصاب الحرب

عقدة أوديب

العملية الأولية البدنية ٦٦ ، ١٠٤ ، ١٠٦

العملية الثانوية ٦٦ ، ١٠٤ ، ١٠٦

الليدو النرجسي ٨٩ - ٩٣ ، ١٠٣
 في المرحلة القمية ٩٣
 نظرية الليدو ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ - ٩٠

م

الماسوكية ٩٤
 نزعات الأنا الماسوكية ٣٣
 مبدأ اللذة

تعريفه ٢٣ ، ١٠٤ - ١٠٥
 سيطرته ٥٨ ، ١٠٤ - ١٠٦
 في خلسة غرائز الموت ١٠٣
 مبدأ الواقع ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٣ ، ٦٦
 المثيرات

وأعضاء الحس ٥٣
 من الداخل ٥٧ ، ٦٦
 الوقاية من المثيرات ٥٥ - ٦٢ ، ٧٦
 استقبال المثيرات ٥٣ ، ٥٤ - ٥٦

المقاومة ٤١ ، ٤٤

الموت

من أسباب داخلية ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥
 غرائز الموت ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٣
 ٨٥ ، ٨٧ ، ٩١ - ٩٣ ، ٩٥
 ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٠٦
 هدف الحياة ٧٣
 نظرية وايزمان ٨٣ - ٨٥

ن

النرجسية ٩٣ - ٩٥
 النزعة إلى الثبات ٢٧
 نظرية الصلحة ٦١

غ

الغريزة

وإجبار التكرار ٦٨ ، ٦٩
 والميل إلى المحافظة ٦٩ - ٧٢
 غريزة الموت ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٩
 ٨٠ - ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩١ - ٩٣ ، ٩٥
 ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٠٦

غرائز الأنا ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٨
 غرائز الجوع والحب ٨٩
 غريزة الحياة ٧٤ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٩١
 ٩٢ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٠٦
 الخصائص الارتدادية للغريزة ١٠١
 الغريزة والكبت ٧٦ ، ٧٧
 غريزة المحافظة على البقاء ٧٢ - ٩٠ ، ٩٢
 ٩٤ - ٩٥

الغيرة

٤٤ ، ٤٥

ل

اللاشعور

والمقاومة ٤٢
 عمليات نفسية لازمنية ٥٦

اللعب

والفن عند الكبار ٣٨ - ٣٩
 عند الأطفال ٤٨ - ٦٧

الليدو

فكرة الليدو ١٠٣
 نموه ٨٩ - ٩٠
 توزيعه ٦٣ ، ٦٤
 نظرية يونج ٩١ ، ٩٢

١٩٩٤ / ٥٦٩٥	رقم الإيداع
ISBN 977 - 02 - 4595 - X	الترقيم الدولي

١ / ٩٤ / ٦٢
 طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



General Organization Of the Alexan-
 dria Library (GOAL)
 Bibliotheca Alexandrina

هذا الكتاب

طلع فيه « فرويد » على الناس بحل عجيب للمشكلة التي طال تفكيره فيها . هل يتغلب مبدأ اللذة غلبة تامة ويسيطر على اتجاهات العمليات النفسية ؟ وهل أغلب العمليات النفسية مصحوبة حتماً باللذة أو مؤدية إليها ؟ قد يكون في النفس نزعات إلى اللذة ، ولكن هناك من العوامل والظروف ما يعارض تلك النزعة . . وبعد هذا فما هو الألم ؟ أهو شيء مستقل في ذاته ؟ أو هو لذة لم يمكن الحصول عليها ولا الظفر بها ؟

لقد حاول المترجم أن ينقل عبارات المؤلف في أكثر ما استطاع من دقة ، وتوخى في ذلك أن يؤدي ماورد في التراجم الإنجليزية والفرنسية أداء أميناً ، دون أن يلجأ إلى أية توطئة أو استطراد قد يتلف الأصل .



دارالمعارف

٠٢١٨٠١/٠١



To: www.al-mostafa.com